العمل التطوعي في ضوء القرآن الكريم
دراسة موضوعية

د. عبد الله بن سالم بن بسلم بافرج (*)

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يهدف البحث لجملة من الأمور منها:

تأصيل العمل التطوعي، وبيان اعتناء الإسلام به، وتَنَوُّع أساليب القرآن الكريم في الحث عليه، وبيان أجر من يقوم بذلك، وذكر نماذج لأعمال تطوعية وأخرى لمن قاموا بها.

وقد اشتمل البحث على بيان مفهوم العمل التطوعي، وذكر ضوابط العمل التطوعي، وأمثلة على العمل التطوعي، ونماذج من المتطوعين، وثمار العمل التطوعي، كل ذلك من خلال القرآن الكريم.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(*) أستاذ مشارك بجامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات القرآنية، مركز الدراسات الإسلامية.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨][1]. أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. ألا وإن من الأمور التي ينبغي الاعتناء بها إظهار عظمة الإسلام، وشموله لجميع مناحي الحياة، واهتمامه بمتطلبات الناس، وسَدَّه لرغباتهم، وحثه على بذل المعروف؛ طلباً للأجر والثواب من عند الله تعالى، ووعدهم على ذلك بالجزاء العظيم والثواب الجزيل، فاستخرت الله تعالى، واستشرت أهل العلم في الكتابة حول هذا الموضوع، وعزمت الهمة واجتهدت طالباً العون والسداد من الله العلي القدير، فكتبت هذا البحث وأسميته «العمل التطوعي في ضوء القرآن الكريم - دراسة موضوعية».

---

(١) هذا جزء من خطبة الحاجة التي رواها ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وأخرجها مسلم في صحيحه، في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٣/١) برقم (٨٦٨)، وابن ماجه في سننه، في كتاب: النكاح، باب: خطبة النكاح (٦١٠/١) برقم (١٨٩٣)، وأحمد في المسند (٣٠٢/١)، ورواها كذلك ابن مسعود وأخرجها عنه أبو داود في سننه، في كتاب: النكاح، باب: في خطبة النكاح (٥٩١/٢) برقم (٢١١٨)، وأحمد في المسند (٣٩٢/١، ٣٩٣)، وانظر: المسند المحقق (١٨٨/٧) برقم (٤١١٥).

أسباب اختيار الموضوع:

كان لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب، وهي تُظهر أهميته منها:

١. إبراز العمل التطوعي وأصالته في القرآن الكريم، وإبراز كيفية عرضه في القرآن الكريم.

٢. إن دراسة مثل هذا الموضوع، والخوض فيه يعطي دليلاً واضحاً على أن القرآن الكريم يصلح لكل زمان ومكان؛ وذلك لتعرُّضه إلى موضوعات تُناسب كل عصر وتواكبه.

٣. إبراز اهتمام الإسلام بإيجاد مجتمع صالح محب للخير متكامل مترابط متماسك، بعيد عن الأنانية وحب الذات.

٤. تأصيل العمل التطوعي؛ وإبراز مدى اهتمام الدين الإسلامي الحنيف بحاجات الناس أفراداً وجماعاتٍ، أمماً وشعوباً، وفي سائر أوقاتهم وأحوالهم.

٥. بيان شيء من حِكم وثمار العمل التطوعي، وآثاره في الفرد والمجتمع.

أهداف البحث:

يهدف البحث لجملة من الأمور أهمها:

١. تأصيل العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم.

٢. بيان اعتناء الإسلام به؛ من خلال أساليب القرآن الكريم في الحث عليه.

٣. بيان أجر من يقوم بذلك، وذكره لنماذج ممن قاموا بأعمال تطوعية.

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسة سابقة في هذا الموضوع بهذا العنوان ولله الحمد، والذي وقفت عليه من الدراسات السابقة كان بموضوعات مختلفة؛ فمن تلك الدراسات:

١. الخدمات التطوعية في الكتاب والسنة؛ مفهومها، وأهميتها، ومجالاتها، إعداد الدكتور: محمد سعيد بن محمد حسن بخاري (١٤٢١هـ).

٢. العمل التطوعي في السنة النبوية، دراسة موضوعية، إعداد الطالبة: رندة محمد زينو، بحث مقدم لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في الحديث الشريف وعلومه بالجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، قسم الحديث الشريف وعلومه (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

٣. العمل التطوعي في ميزان الإسلام، تأليف: أحمد محمد عبد العظيم الجملة (٢٠٠٩م).

الفرق بين هذه الدراسة والدراسات السابقة:

الدراسات السابقة اهتمت بجزئيات متفرقة في الموضوع، ولم تتحدث عنه بالصورة التي رسمتها وهي الدراسة الموضوعية، أما هذه الدراسة فهدفت إلى تخصيص دراسة عن العمل التطوعي وتأصيله من خلال القرآن الكريم، وهذه الإضافة لم تتحدث عنها الدراسات السابقة، وأرجو أن أوفق إليها في هذه الدراسة.

خطة البحث:

تكونَّ البحث من مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس وفق الترتيب الآتي:

المقدمة: فيها سبب اختيار الموضوع، وأهميته، وهدفه، والدراسات السابقة، وخطة البحث ومنهجه.

تمهيد: مفهوم العمل التطوعي.

المبحث الأول: أسلوب القرآن الكريم في الحث على العمل التطوعي.

المبحث الثاني: صفات العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أمثلة على العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم.

المبحث الرابع: نماذج من المتطوعين من خلال القرآن الكريم.

المبحث الخامس: ثمار العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس: وفيها فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن أسلك فيه المنهج الوصفي القائم على استقراء النصوص من خلال القرآن الكريم، وترجمتها بعناوين مناسبة للموضوع، ثم ترتيبها وتبويبها حسب ما تقتضيه صياغة الخطة العلمية للبحث.

١. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، وخرَّجت الأحاديث وعزوتها إلى مصادرها مع بيان درجتها.

٢. وثَّقت النصوص التي أنقلها، توثيقاً علمياً دقيقاً من مصادرها الأصلية، ما أمكنني ذلك.

٣. عند الإحالة إلى صفحة النص المنقول فإن الإحالة تكون للصفحة التي فيها بدايته.

٤. المعول عليه في معرفة طبعات المصادر والمراجع هو الفهرس الخاص بذلك في آخر البحث، وقد التزمت طبعة واحدة لكل كتاب.

٥. ضبطت بالشكل ما يحتاج إلى ضبط، مما قد تُشكل قراءته، ويلتبس نطقه.

٦. ذيلت البحث بفهارس للمصادر والمراجع، والموضوعات.

وفي الختام أسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون موافقاً للصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد
مفهوم العمل التطوعي

العمل في اللغة:

عمل: العين والميم واللام أصلٌ واحدٌ صحيح، وهو عامٌّ في كلّ فِعْلٍ يُفْعَل[(١)] بقصد، فهو أخصّ من الفعل؛ لأنّ الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما نسب إلى ذلك، ولم يستعمل العَمَلُ في الحيوانات إلا في قولهم: البقر العَوَاملُ[(٢)].

والعَمَل: المِهْنة والفِعْل، والجمع أَعمال[(٣)].

والعَمَلَة: القوم يعملون بأيديهم ضُروباً من العمل[(٤)]، وأَعْمَلَ فلان ذِهْنَه في كذا وكذا إِذا دَبَّره بفهمه، وأَعْمَل رَأْيَه وآلَتَه ولِسانَه واسْتَعْمَله: عَمِل به[(٥)]، والعَمَلُ يستعمل في الأَعْمَالِ الصالحة والسّيّئة[(٦)].

التطوع في اللغة:

طوع: الطاء والواو والعين: أصلٌ صحيحٌ واحد يدلُّ على الإصحابِ والانقيادِ[(٧)]، والطَّوْعُ نَقِيضُ الكَرْهِ؛ طاعَه يَطُوعُه وطاوَعَه، والاسم الطَّواعةُ والطَّواعِيةُ، ورجل طَيِّعٌ أَي: طائِعٌ، ورجل طائِعٌ وطاعٍ مقلوب، كلاهما مُطِيعٌ[(٨)].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١٤٥/٤).
(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٥٨٧).
(٣) انظر: اللسان مادة (ع م ل) (٤٧٥/١١).
(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة (١٤٥/٤).
(٥) انظر: اللسان مادة (ع م ل) (٤٧٥/١١).
(٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٥٨٧).
(٧) انظر: معجم مقاييس اللغة (٤٣١/٣).
(٨) انظر: اللسان مادة (ط و ع) (٢٤٠/٨).

والتَّطَوُّعُ في الأصل: تكلُّفُ الطَّاعَةِ، وهو في التّعارف: التبرّع بما لا يلزم كالتّنفُّل، قال تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤][١]، ولا يقال هذا إلاَّ في باب الخير والبِرّ[٢]، والتَّطَوُّعُ: ما تَبرَّعَ به من ذات نفسه مما لا يلزمه فَرْضُه، كأَنهم جعلوا التَّفَعُّلَ هنا اسماً كالتَّنَوُّطِ[٣]، فالمتطوع طَوعَّ نفسه وليَّنَها فَفَعل من غير أن يُطَلَب منه؛ زيادة في الطاعة[٤]. وهذه التفسيرات لمعنى الفعل (تطوَّع) تتجه نحو تكلُّف الطاعة وإلزام النفس بها رغبة في فعلها، سواء كان ذلك بأمر داخلي، أو بطلب وتوجيه من الآخرين، وهذا ما يتوافق مع دلالة صيغة (تفعَّل). قال ابن الحاجب: «وتفعل لمطاوعة فَعَّل، نحو كَسّرته فتكسَّر، وللتكلُّف نحو تشجَّع، وتحلَّم...»، وعلّق الرضي على كلام ابن الحاجب بقوله: «فقوله: «وللتكلُّف» هو من القسم الأول: أي مطاوع فعَّل الذي هو للنسبة تقديراً، كأنه قيل: شجَّعته وحلَّمته: أي نسبته إلى الشجاعة والحلم، فتشجّع وتحلّم، أي: انتسب إليهما وتكلَّفهما»[٥].

العمل التطوعي اصطلاحاً:

بتتبع أقوال أهل العلم في التعريف اللغوي لمفردتي العمل والتطوع نجد أنه قد شمل ما يلي:

١. قصد العمل.
٢. معنوياً كعمل الذهن، والرأي، أو حسياً كالقول باللسان، والعمل في مهنة.
٣. بدون إكراه.
٤. بدون إلزام من الشرع.
٥. في باب من أبواب الخير والبِرّ.

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٥٢٩ - ٥٣٠).
(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة (٤٣١/٣).
(٣) انظر: اللسان مادة (ط و ع) (٢٤٠/٨).
(٤) انظر: المعجم الاشتقاقي مادة (ط و ع) (١٣٢٨).
(٥) شرح شافية ابن الحاجب (١٠٤/١).

وبالتالي يمكن تعريف العمل التطوعي اصطلاحاً بأنه:

التبرّع بعمل معنوي أو حسي، بدون إكراه ولا إلزام من الشرع، ابتغاءً للأجر والثواب من عند الله تعالى؛ كالبر، والمعروف، والصدقة، وحسن القول، وغير ذلك من أعمال البر.

وقد عُرِّف العمل التطوعي اصطلاحاً بعدة تعاريف منها:

١. الجهد الذي يبذله أي إنسان بلا مقابل لمجتمعه؛ بدافع منه للإسهام في تحمل مسؤولية المؤسسة التي تعمل على تقديم الرعاية الاجتماعية[١].

٢. كل جهد بدني أو فكري أو عقلي أو قلبي يأتي به الإنسان، أو يتركه، تطوعاً دون أن يكون ملزَماً به لا من جهة الشرع ولا من غيره؛ كالتطوع في كتابة العقود، وتغسيل الموتى، وإماطة الأذى عن الطريق، وإيناس المرضى، وإنقاذ الغرقى والهدمى والحرقى، وإعانة في مهم كموت وعرس وسفر[٢].

٣. الجهود التي يبذلها الإنسان لخدمة المجتمع دون الحصول على فوائد مادية؛ بدافع إنساني بتحمل مسؤولياته، ويشترك في أعمال تستغرق وقتاً وجهداً وتضحيات شخصية، ويبذل المتطوع كل ذلك عن رغبته وباختياره، معتقداً بأنه واجب يجب تأديته[٣].

٤. جملة الأنشطة المبذولة - من خلال مؤسسات العمل الخيري وأعضائها - في خدمة المحتاجين، والقضايا التي تمثل محور الاهتمام بالنسبة لتفعيل هذا العمل[٤].

---

(١) انظر: التطوع في الدفاع المدني والحماية المدنية (ص٢٩).
(٢) انظر: الأعمال التطوعية في الإسلام (ص١٢).
(٣) انظر: أولويات بحوث ودراسات العمل الخيري (ص٢٤).
(٤) انظر: أولويات بحوث ودراسات العمل الخيري (ص٢٤).

المبحث الأول

أسلوب القرآن الكريم في الحث على العمل التطوعي

من الأمور التي ينبغي الاعتناء بها إظهار عظمة الإسلام، وشموله لجميع مناحي الحياة، واهتمامه بمتطلبات الناس، وسدُّه لرغباتهم، ومن تلك الأمور ما جاء في القرآن الكريم من الترغيب والحث على العمل التطوعي؛ إذ جاء بعدة أساليب منها:

١. اعتبار العمل التطوعي إحساناً:

من إطلاقات الإحسان في القرآن الكريم الإنعام على الغير، غير أن الإحسان أعمّ من الإنعام[(١)]، فالإحسان يكون لنفس الإنسان ولغيره، تقول: أحسنت إلى نفسي، والإنعام: لا يكون إلا لغيره[(٢)]. وقد وصف الله تعالى المحسنين في سورة الذاريات بعدة صفات، تظهر مدى إحسانهم، وشدة رغبتهم فيما عند الله تعالى، وهذه الصفات التي وصفوا بها فيما بينهم وبين الله تعالى، وفيما بينهم وبين عباد الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

فمن أبرز الصفات التي بينهم وبين عباد الله تعالى أنهم جعلوا في أموالهم نصيباً للسائل الذي يسأل فيعطى، ونصيباً للمحروم الذي يسكت ويستحيي فيحرم، يجعلون نصيب هذا وذاك حقاً مفروضاً في أموالهم، وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود، وذكر الله تعالى لفظ ﴿حَقٌّ﴾؛ لأنهم من شدة رغبتهم في الثواب والقربى إلى الله تعالى ألزموا أنفسهم بذلك الإنفاق من غير إلزام من الله تعالى.

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٢٣٦).

(٢) انظر: اللسان مادة (ن ع م) (١٢/٥٧٩)، والفروق اللغوية (ص١٩٣).

قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، قال الشوكاني: «أي: يجعلون في أموالهم على أنفسهم حقاً للسائل والمحروم تقرّباً إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقال محمد بن سيرين، وقتادة: الحق هنا: الزكاة المفروضة، والأوّل أولى، فيحمل على صدقة النفل، وصلة الرحم، وقِرى الضيف؛ لأن السورة مكية، والزكاة لم تُفرض إلاّ بالمدينة»(١)، وقال بهذا القول: ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، ومجاهد، وابن وهب وغيرهم(٢).

٢. اعتبار العمل التطوعي قرضاً حسناً:

القرض الحسن هو: العمل الصالح من الصدقة وغيرها، بشرط الاحتساب للأجر والصدق في العمل(٣)، والعرب تقول لكل مَنْ فعل فعلًا حسناً: قد أقرض، وسُمِّي قرضاً؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل(٤)، وهذا على سبيل التأنيس والتقريب للناس بما يفهمونه والله هو الغني الحميد، وشبَّه تعالى عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبَّه بذل النفوس والأموال في الجنة بالبيع والشراء(٥).

وقد ذكر الله تعالى الفاعِلين للقرض الحسن في كتابه الكريم ست مرات في خمس سور هي: البقرة، والمائدة، والحديد، والتغابن، والمزمل. بألفاظ مختلفة هي: ﴿يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾.

وجاء في الآيات الكريمة وَعْدُ الله تعالى كلَّ مَنْ يقرضه تعالى قرضاً حسناً بالمضاعفة، وتكفير السيئات، والأجر الكريم، ومغفرة الذنوب، وأن ما يقدمه الإنسان في هذه الدنيا من القرض الحسن سيجد أجره وثوابه عند الله تعالى أحوج

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٨٤/٥).
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣١١/١٠)، وتفسير زاد المسير (٣٢/٨)، وتفسير البحر المحيط (١٩٤/٨)، وتفسير الآلوسي (١٤/٢٧ - ١٥).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٥٢/١٧).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٤٢/١٧).
(٥) انظر: تفسير البحر المحيط (٤٠٢/٢).

ما يكون إليه، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ [المزمل: ٢٠].

٣. اعتبار العمل التطوعي صدقة:

الصَّدَقَةُ: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القُربة كالزّكاة، لكن الصدّقة في الأصل تقال: للمتطوّع به، والزّكاة للواجب، ويقال لما تجافى عنه الإنسان من حقّه: تَصَدَّقَ به، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، أي: من تجافى عنه، وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فإنه أجرى ما يسامح به المعسر مُجرى الصّدقة، وجعله الله صدقة لأن فيه تفريج الكرب وإغاثة الملهوف[١].

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢]، فسمّى إعفاءه صَدَقَةً[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِى ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] فإن إخوة يوسف طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل، أي: يجعله تاماً لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصدّق عليهم فقالوا: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٢/٩٦).
(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٤٨٠ - ٤٨١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] وذلك يكون إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاؤوا بها، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها، وبهذا قال أكثر المفسرين(١).

قال ابن العربي: «معنى تَصَدَّقْ: سامح، لا أَصْلُ الصَّدقة»(٢)، فسَمَّوا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة(٣).

وقد جعلها الله من صفات عباده المتقين فقال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وأجاز تعالى المناجاة فيها وبسببها، فقال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤]، ووعد تعالى المتصدقين بالمضاعفة، والأجر الكريم، وبقبولها، وتنميتها لصاحبها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ [الحديد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٤. اعتبار العمل التطوعي براً:

البِرّ: التوسع في فعل الخير، وهو: اسم جامع للخير(٤)، وإذا نسب ذلك إلى العبد؛ فيقال: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسّع في طاعته، وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد، وضرب

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٣/٥٠).
(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/١١٠٦).
(٣) انظر: تفسير البحر المحيط (٥/٤٣٨)، وتفسير السعدي (٢/٤٤٥).
(٤) انظر: تفسير الشوكاني (١/١٧٢).

في الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فإنّ الآية متضمنة للاعتقاد وأعمال الفرائض والنوافل(١).

وقد رغَّب الله تعالى في فعل البِرّ في الكتاب العزيز ثمان مرات، في أربع سور هي: البقرة، وآل عمران، والمائدة، والمجادلة، وجاء الترغيب في أساليب متنوعة؛ فبين تعالى أن البِرّ من صفات المتقين، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وأنه لن ينال العبد درجة البِرّ حتى ينفق مما يحب، فقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وأمر تعالى عباده المؤمنين بالتعاون عليه فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٢]؛ ففي هذه الآية يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البِرّ، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم(٢)، ونهى تعالى عن التناجي بضد البر، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

ووبخ الله تعالى أقواماً على عدم فعلهم للبر، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، والهمزة في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبِرّ؛ فإنه فعل حسن مندوب إليه، بل بسبب ترك فعل البِرّ المستفاد من قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾،

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص١١٤).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٧/٢).

مع التطهر بتزكية النفس، والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاماً للناس، وتلبيساً عليهم، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع، وأشد توبيخ، وأبلغ تبكيت، أي: كيف تتركون البِرّ الذي تأمرون الناس به؟ وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل، وشدّة الوعيد عليه، كما ترونه في الكتاب الذي تتلونه، وهذه الأوامر والنواهي، وإن كانت خاصة في الصورة ببني إسرائيل فإنهم هم المخاطبون بها هي عامة في المعنى(١)؛ فيجب على كل مكلف ذِكْرُ نعمة الله، والإيفاء بالعهد وسائر التكاليف المذكورة بعد هذا(٢)، ونبه تعالى بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ على أن هذه حالة من سلب العقل، إذ العاقل ساع في تحصيل ما فيه نجاته وخلاصه أولاً، ثم يسعى بعد ذلك في خلاص غيره.(٣)

وجمع البارّ: أَبْرَار وبَرَرَة، لكن بَرَرَةٌ خصّ بها الملائكة في القرآن من حيث إنه أبلغ من أبرار، فإنه جمع برّ، وأبرار جمع بار، وبَرٌّ أبلغ من بَارٍّ(٤).

وجاء ذكر الأبرار في الكتاب العزيز ست مرات في أربع سور هي: آل عمران، والإنسان، والانفطار، والمطففين في أساليب متنوعة؛ ففي سورة آل عمران بين تعالى أن من دعاء أولي الألباب قولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وفي سور آل عمران، والإنسان، والانفطار، والمطففين بين أن من جزائهم: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، و[المطففين: ٢٢] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

(١) وشاملة لكل مخاطب.
(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (٢٦٣/١).
(٣) انظر: تفسير البحر المحيط (٢٦٧/١).
(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص١١٤ - ١١٥).

٥. اعتبار العمل التطوعي خيراً:

قال ابن فارس: «خير: الخاء والياء والراء أصله العَطْف والميْل، ثمَّ يحمل عليه، فالخَير: خِلافُ الشّرّ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يَميلُ إليه ويَعطِف على صاحبه»(١).

وقد رغَّب الله تعالى عباده في فعل الخير عموماً في آيات كثيرة منها:

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] ففي هذه الآية ندب فيما عدا الواجبات التي صح وجوبها من غير هذا الموضع؛ كصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وسائر وجوه البر، وأبواب المعروف(٢)، ويظهر في هذا الترتيب أنهم أمروا أولًا: بالصلاة، وهي نوع من العبادة، وثانياً: بالعبادة، وهي نوع من فعل الخير، وثالثاً: بفعل الخير، وهو أعم من العبادة؛ فبدأ بخاص ثم بعام ثم بأعم(٣).

ومعنى الفلاح في هذه الآية: نيل البغية، وبلوغ الأمل؛ والمعنى: لكي تسعدوا، وتفوزوا بالجنة(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، قال الحسن وغيره: «أراد سائر الأعمال، يعني فعل غير المفترض عليه من زكاة، وصلاة، وطواف، وغيرها من أنواع الطاعات»(٥)، وجاء بهذا التذييل في نهاية الآية التي تتحدث عن أعمال الحج لقصد الإتيان بحكم كليّ في أفعال الخيرات كلها من فرائض ونوافل، أو نوافل فقط، فليس المقصود من ﴿خَيۡرٗا﴾ خصوص السعي؛ لأن ﴿خَيۡرٗا﴾ نكرة في سياق

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/٢٣٤).

(٢) انظر: تفسير السمعاني (٣/٤٥٧)، وتفسير القرطبي (١٢/٩٨)، وتفسير زاد المسير (٥/٤٥٤).

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط (٦/٤٧٤).

(٤) انظر: تفسير الخازن (٣/٢٦٥).

(٥) تفسير البغوي (١/١٩٣)، وتفسير السمعاني (١/١٦٠).

الشرط فهي عامة؛ ولهذا عطفت الجملة بالواو دون الفاء؛ لئلا يكون الخير قاصراً على الطواف بين الصفا والمروة[1]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: مجازٍ لعبده بعمله ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته، والشكر من الله تعالى أن يعطي لعبده فوق ما يستحق، يشكر اليسير ويعطي الكثير[2]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وعلمه هنا هو علمه بقدر الجزاء الذي للعبد على فعل الطاعة، أو بنيته وإخلاصه في العمل، وقد وقعت الصفتان هنا الموقع الحسن؛ لأن التطوّع بالخير يتضمن الفعل والقصد، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل، وذكر العلم باعتبار القصد[3]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧]، وفي هذا دليل على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه[4]؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]. وقد امتثل المؤمنون أمر الله تعالى لهم بالمسابقة في الخيرات في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، و[المائدة: ٤٨] فسارعوا إليها طلباً للأجر والثواب، فكان من صفاتهم كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

---

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٦٤/٢).
(٢) انظر: تفسير البغوي (١٩٣/١)، وتفسير البحر المحيط (٦٥٣/١).
(٣) انظر: تفسير البحر المحيط (٦٥٣/١).
(٤) انظر: تفسير السعدي (١٣٧/١).

وظاهر قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤] العموم في كل تطوع بخير، وإن كانت وردت في أمر الفدية في الصوم، والله تعالى أعلم(١).

٦. إعطاء الغارم في إصلاح ذات البين من الزكاة:

جعل الله تعالى لمن قام بالإصلاح بين الناس حظاً في الزكاة وإن كان غنياً؛ ليستعين بما يعطى منها على هذا العمل الجليل، وفي هذا حث من الله تعالى لعباده على الأعمال التطوعية.

والزكاة لها مكانتها في شريعة الله، فهي ركن من أركان الإسلام ومبانيه العظام.

وقد تولى الله تعالى تقسيم الزكاة وجعلها في أصناف محددة، ومن تلك الأصناف الغارمين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وأصل الغُرم ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه، أو خيانة(٢)، والمراد بالغارمين هنا المَدِينون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجُعل له نصيب من الزكاة؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً، وهو قول الشافعي وأصحابه، وأحمد بن حنبل وغيرهم.

الثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يُوَفِّي به دينه(٣).

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٦٣/٢).

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم (ص٦٠٦).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٣٦١/٢)، وتفسير القرطبي (١٨٤/٨)، وتفسير البحر المحيط (٧٥/٥)، وتفسير ابن كثير

وعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلاَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ: إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَاماً مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاَثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ، لَقَدْ أَصَابَتْ فُلاَناً فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَاماً مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتاً يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتاً»[1]. قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً» هي: بفتح الحاء، وهي المال الذي يتحمله الإنسان أي يستدينه، ويدفعه في إصلاح ذات البين، كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذلك، وإنما تحل له المسألة ويعطى من الزكاة بشرط أن يستدين لغير معصية»[2].

وقال ابن قدامة: «من الغارمين صنف يعطون مع الغنى، وهو غرم لإصلاح ذات البين، وهو أن يقع بين الحيين وأهل القريتين عداوة وضغائن، يتلف فيها نفس أو مال، ويتوقف صلحهم على من يتحمل ذلك، فيسعى إنسان في الإصلاح بينهم، ويتحمل الدماء التي بينهم والأموال، فيسمى ذلك حمالة - بفتح الحاء - وكانت العرب تعرف ذلك، وكان الرجل منهم يتحمل الحَمالة، ثم يخرج في القبائل فيسأل حتى يؤديها، فورد الشرع بإباحة المسألة فيها، وجعل لهم نصيباً من الصدقة، والفرق بين هذا الغرم والغرم لمصلحة نفسه، أن هذا الغرم يؤخذ لحاجتنا إليه لإطفاء الثائرة، وإخماد الفتنة، فجاز له الأخذ مع الغنى، كالغازي والمؤلف والعامل. وقال النووي: هذا هو المذهب»[3].

(٣٧٩/٢ - ٣٨٠)، وتفسير السعدي (٢٧٠/٢).

(١) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: الزكاة، باب: من تحل له المسألة (٧٢٢/١) رقم (١٠٤٤).

(٢) شرح مسلم للنووي (١٣٤/٧).

(٣) المغني (٣٢٨/١٤)، والمجموع شرح المهذب (٢٠٧/٦).

٧. التحذير من التثبيط عن فعل التطوع:

حذر الله تعالى في كتابه الكريم المؤمنين من التخلق بصفات المنافقين، ومن صفات المنافقين أنهم لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد المتصدقين بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا[١]؛ ففي سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، قال أَبو مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلاَّ رِئَاءً، فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ الآية [التوبة: ٧٩][٢].

وعطف ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ على ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ وهم منهم، اهتماماً بشأنهم، والجهد - بضم الجيم - الطاقة، وأطلقت الطاقة على مسببها الناشئ عنها، وحذف مفعول ﴿يَجِدُونَ﴾ لظهوره من قوله: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: لا يجدون ما يتصدقون به ﴿إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾، والمراد لا يجدون سبيلاً إلى إيجاد ما يتصدقون به إلا طاقتهم؛ أي: جهد أبدانهم، أو يكون (وجد) هنا هو الذي بمعنى كان ذا جِدة، أي غنى فلا يقدر له مفعول، أي: الذين لا مال لهم إلا جهدهم، وهذا أحسن، وفيه ثناء على قوة البدن والعمل وأنها تقوم مقام المال، وهذا أصل عظيم في اعتبار أصول الثروة العامة والتنويه بشأن العامل[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٨٩/٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (٨٤/٦) رقم (٤٦٦٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: الحمل بأجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل (٨٨/٣) رقم (١٠١٨).

(٣) انظر: تفسير ابن عاشور (٢٧٥/١٠).

وقرأ: (جَهْدَهُمْ) بالفتح وهو إحدى لغتين في الجهد، فمعنى المضموم والمفتوح واحد، وقيل: المفتوح بمعنى المشقة، والمضموم بمعنى الطاقة، وقيل: المضموم شيء قليل يُعاش به، والمفتوح العمل(١).

وفي قول المنافقين من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بيِّن، ولهذا كان جزاؤهم أن ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢)، والتنوين في العذاب للتهويل والتفخيم(٣).

وبهذا تظهر عظمة الإسلام في دعوة أتباعه إلى فعل الخير سواء كان بالمال، أو بالجهد، أو بكف الأذى والشر عن الباذلين للخير؛ فلا يكون سبباً في منع غيره عن الخير، والبر، والإحسان، فعن أَبِي بُرْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ»، أَوْ قَالَ: «بِالْمَعْرُوفِ»، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ»(٤)؛ فكل من يرجو ما عند الله من الخير والثواب يبذل الموجود لينال ذلك الثواب الموعود به(٥)، ومن أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير؛ فالذي ينبغي إعانته وتنشيطه على عمله(٦)، ومن أقبح القبيح استخفاف الدنيء الأرذل بالأكرم الأفضل، واستهزاؤه به(٧).

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٤٤٧/١)، وإعراب القراءات الشواذ (٦٢٧/٢)، وتفسير البحر المحيط (٩٨/٥).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٢٨٢/٢).

(٣) انظر: تفسير الآلوسي (٤٦٩/١٠).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: كل معروف صدقة (٧٩/٧) برقم (٥٥٦٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٦٩٩/١) برقم (١٠٠٨).

(٥) انظر: تفسير الخازن (٣٨٩/٢).

(٦) انظر: تفسير السعدي (٢٨٢/٢).

(٧) انظر: تفسير أضواء البيان (٦٢٩/٧).

٨. التحذير من الاتصاف بصفات المكذبين بيوم الدين:

إن حقيقة التصديق بيوم الدين ليست كلمة تقال باللسان؛ إنما هي تَحَوُّلٌ في القلب يدفعه إلى بذل الخير والبر لإخوانه المسلمين، المحتاجين لمعروفه، والله لا يريد من الناس كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها، وقد بين الله تعالى أن من أظهر سمات المكذب بيوم الدين؛ أنه مانع لإعارة الشيء الذي تعارف الناس على إعارته، فضلاً عن إخراج الزكاة من ماله؛ لذا ينبغي للمؤمن المصدق بيوم الدين أن يبتعد عن تلك الخصلة الذميمة.

قال الله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]. قال ابن جرير: «أصل الماعون من كل شيء منفعته»(١). وقال ابن العربي: «الماعون: مفعول من أعان يعين، والعون هو الإمداد بالقوة والآلة والأسباب الميسرة للأمر»(٢).

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا نَعُدُ الماعونَ على عَهْدِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عارِيَّةَ الدلْوِ والقِدْرِ»(٣).

وقال عكرمة: «رأس الماعون زكاة المال، وأدناه المنخل والدلو والإبرة»(٤).

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة، ولهذا قال محمد بن كعب: «﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧] قال: المعروف»، ولهذا جاء في الحديث: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»(٥).

---

(١) تفسير ابن جرير (٦٦٦/٢٤).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (١٩٨٤/٤).

(٣) رواه أبو داود في سننه، في كتاب: الزكاة، باب: في حقوق المال (٣٠٢/٢) برقم (١٦٥٧)، وصحح إسناده إلى ابن مسعود ابن حجر في فتح الباري (٦٠٣/٨).

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٦٩/١٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الأدب، باب: كل معروف صدقة (٧٩/٧) برقم (٥٥٦٢)، ومسلم في

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، إذ كان الماعون هو ما وصفنا قبل، وكان الله قد أخبر عن هؤلاء القوم، وأنهم يمنعونه الناس، خبراً عاماً، من غير أن يخص من ذلك شيئاً، أن يقال: إن الله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاورونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق؛ لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض»[1].

ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها في نهاية البخل.

قال العلماء: ويستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم ويتفضل عليهم، ولا يقتصر على الواجب[2].

ومنع الماعون من طبيعة الإنسان إلا المصلين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢][3]؛ فمانعو الماعون لم يحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم؛ فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُربات أولى وأولى[4].

صحيحه، في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٦٩٧/١) برقم (١٠٠٥). وانظر: تفسير ابن كثير (٥٩٤/٤).

(١) تفسير ابن جرير (٦٧٨/٢٤).

(٢) انظر: تفسير الخازن (٤٧٩/٤).

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان (٥٤٧/٩).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٥٩٤/٤).

والعارية مستحبة شرعاً ومروءة وعرفاً في حالة الاختيار، وواجبة في حالة الاضطرار، مع ملاحظة أن حالات الاستعارة أغلبها اضطرار، إلا أن حالات الاضطرار تتفاوت ظروفها، وقد امتدح الله الأنصار بأنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فالعارية من باب أولى؛ لأنه ينتفع بها وترد لصاحبها[1].

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٥٥٧/٩)، وانظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٩٨٥/٤)، وتفسير الآلوسي (٦٥٧/٣٠)، وتفسير السعدي (٤٤٢/٥).

المبحث الثاني
صفات العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم

للعمل التطوعي صفات ينبغي الاعتناء والقيام بها؛ ذلك لأن العمل التطوعي مثل سائر الأعمال، إلا أنه يفضل عليها بأن صاحبه لا يأخذ مقابلاً مادياً على عمله، وربما أن بعض المتطوعين يجهل تلك الصفات، أو يغفل عنها، وهي صفات عدة قد جاء ذكرها في القرآن الكريم؛ فمن تلك الصفات:

أولاً: إخلاص العامل في عمله:

هذه صفة مهمة يجب ألَّا يغفل عنه من يعمل في العمل التطوعي، فالله تعالى قال بعد أن ذكر جملة من الأمور التي يتطوع بفعلها: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، ومعنى الآية: أن الله تعالى وعد من فعل تلك الأمور بشرط أن يكون الباعث للفاعل هو ابتغاء مرضاة الله، فلا يكون لهوى، ولا يكون ليشتهر بين الناس بأنه يعمل الأعمال الصالحة، ولا تكون هناك أي شائبة في نية العامل وقصده في ذلك العمل؛ كما في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(١)، ثم إن الله تعالى وصف الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا، وهذا الأجر لا حد له لأن الله سمَّاه عظيماً وإذا كان كذلك فلا يعلم قدره إلا الله(٢).

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي (٢/١) برقم (١)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال (١٥١٥/٣) برقم (١٩٠٧).

(٢) انظر: تفسير الخازن (٤٢٧/١)، وتفسير البيضاوي (٢٥٢/٢).

ثانياً: اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التطوع بالخير:

من صفات العمل الخيري أن يكون موافقاً لهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يتطوع العبد بما لم يشرعه الله تعالى ولا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال الإمام ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٥٨] «دل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل»(١).

ثالثاً: إتقان العمل:

من الصفات المهمة التي ينبغي لمن قام بعمل تطوعي أن يهتم بها: إتقان العمل الذي أسند إليه، فالله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومن هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يتقن العمل ويأمر بإتقانه؛ فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»(٢). وعن سيرين القبطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: رَأَى رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فُرْجَةً فِي اللَّبِنِ، فَأَمَرَ أَنْ تُسَدَّ، وَقَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَحَبَّ اللهُ أَنْ يُتْقِنَهُ»(٣)، وعن أبي كُلَيْبٍ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ أَبِيهِ جَنَازَةً شَهِدَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْتَهَى بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمْ يُمْكِنْ لَهَا، قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «سَوُّوا لَحْدَ هَذَا» حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَمَا إِنَّ هَذَا لا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ»(٤).

(١) انظر: تفسير السعدي (١/١٣٧ - ١٣٨).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (٧/٣٤٩) برقم (٤٣٨٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (١/٢٧٥) برقم (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٣٢ - ٢٣٣) بأرقام (٤٩٢٩، ٤٩٣٠، ٤٩٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/١٤٤) برقم (١٨٧٦).

(٣) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦/٣٣٦٧) برقم (٧٧٠٠)، ويؤيد هذا الأثر ما جاء قبله وما جاء بعده.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٣٤) برقم (٤٩٣٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/١٤٧) برقم (١٨٨٧).

رابعاً: معرفة حكم العمل التطوعي:

من الصفات التي ينبغي للقائم بالعمل التطوعي أن يعرفها معرفة حكمه؛ فالعمل التطوعي في أصله فرض كفاية، ولكنه يصل أحياناً إلى حد كونه فريضة يلزم بها من تعينت عليه.

والكفاية لغة: مِنْ كَفَى يَكْفِي كِفايةً إذا قام بالأَمر، ويقال: اسْتَكْفَيْته أَمْراً فكَفانِيه، ويقال: كَفاك هذا الأَمرُ أَي: حَسْبُك وكَفاكَ هذا الشيء، ومن معانيها: ما يحصل به الاستغناء عن غيره، يقال: كَفاه الأَمرَ إذا قام فيه مَقامه(١).

وفرض الكفاية هو: أمر مهم كلي تتعلق به مصالح دينية ودنيوية، لا ينتظم الأمر إلا بحصولها، وقصد الشارع حصولها من مجموع المكلفين لا من جميعهم، وليس من شخص معين، فإذا قام به مَنْ فيه كفاية سقط الحرج عن الباقين(٢).

وفرض الكفاية إذا انحصر في شخص تعين عليه(٣).

خامساً وسادساً: القوة والأمانة:

من الصفات التي ينبغي أن تكون فيمن يعمل في الأعمال التطوعية: القوة في تحمل ما كلف به، والقيام به حق القيام، وحفظ الأمانة التي كلف بحفظها. قال الله تعالى مبيناً سبب قول ابنة صاحب مَدْيَنَ لأبيها في استئجار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للعمل لديهم: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]

(١) انظر: اللسان مادة (ك ف ى) (١٥/٢٢٥، ٢٢٦).

(٢) انظر: الفروق للصنهاجي القرافي (١/٢١٤)، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (١/٢٣٦)، والأشباه والنظائر للسيوطي (ص٤١٠)، وروضة الناظر لابن قدامة (ص٢٠٧ - ٢٠٨)، والمدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران (١/١١١)، والموسوعة الفقهية الكويتية (٣٥/٦ - ٧).

(٣) انظر: منهاج الطالبين وعمدة المفتين (ص٥٤)، والموسوعة الفقهية الكويتية (٣٨/٢٥٠).

وقولها كلام حكيم جامع؛ لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر، فقد تم المقصود[1]، ومعنى الآية: أن خير مَنْ استعملت مَنْ قوي على العمل وأدَّى الأمانة[2]، ويقال: القوي فيما يلي، والأمين فيما يستودع[3]، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى عملاً بإجارة أو غيرها، فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك؛ لأنها شاهدت من قوة موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عند السقي لهما ونشاطه ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله تعالى[4].

سابعاً وثامناً: الحفظ والعلم:

من الصفات التي ينبغي أن تكون في المتطوعين الحفظ والعلم، الحفظ بمفهومه العام فيشمل حفظ ما ائتمن عليه، وضبط الداخل والخارج، والمتطوعُ عليم بجميع وجوه التصرف فيما يتولاه، عليم بكيفية التدبير والمنع والإعطاء، عليم بالأشخاص وكيفية التعامل معهم، عليم بالألسن، واسع الثقافة، وغير ذلك من وجوه العلم[5].

قال الله تعالى ذاكراً قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، قال ابن عاشور: «علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه، وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي الناس إلى اتباعه، وهذا من قبيل الحسبة»[6].

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (١٤٩/٧).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٥٣٠/٣).
(٣) انظر: تفسير السمعاني (١٣٤/٤).
(٤) انظر: تفسير السعدي (١٥/٤).
(٥) انظر: تفسير السعدي (٤٣٥/٢).
(٦) تفسير ابن عاشور (٩/١٣).

تاسعاً: الاتصاف بالصلاح في التعامل:

من الصفات التي ينبغي للعاملين في الأعمال التطوعية الاتصاف بها: الصلاح فيما بينهم وبين الله تعالى، ومكارم الأخلاق فيما بينهم وبين عباد الله؛ ومن تلك الصفات حسن التوكل على الله تعالى، وحسن الصحبة، والوفاء بالوعد، والالتزام بالأنظمة والقرارت، وعدم الإيذاء، وعدم المشاقة، وعدم الجدل، وغيرها من الصفات، قال الله تعالى ذاكراً ما قاله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحب مدين بعد أن تم الاتفاق بينهما: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] يعني: في حسن الصحبة والوفاء، وقيل: أراد الصلاح على العموم، فلا يشاقه، ولا يؤذيه، ولا يماريه(١)، فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه أبلغ من غيره، وقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعد صادق مقرون بالمشيئة في حسن المعاملة، ووطاءة الخلق، ويريد بالصالحين الصالحين بالناس في حسن المعاملة ولين الجانب، وقصد بذلك تعريف خلقه لصاحبه، وليس هذا من تزكية النفس المنهي عنه؛ لأن المنهي عنه ما قصد به قائله الفخر والتمدح، فأما ما كان لغرض الدين أو المعاملة فذلك حاصل لداعٍ حسن كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥](٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٩٧/٣)، وتفسير الشوكاني (١٦٩/٤).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (١٥٠/٧)، وتفسير السعدي (١٥/٤)، وتفسير ابن عاشور (١٠٩/٢٠).

المبحث الثالث

أمثلة على العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم

ذكر الله تعالى أمثلة كثيرة للأعمال التطوعية في كتابه الكريم، بها يتقرب العبد لربه، ويحسن بها إلى عباد الله تعالى؛ فمن تلك الأعمال:

الأول: عمارة المساجد:

عمارة المساجد من أجل العبادات وأفضل القربات، وبين الله تعالى في كتابه الكريم هذا الأمر في عدد من الآيات، فمن تلك الآيات ما بين به سبحانه جملة من صفات عباده الذين منّ عليهم بالهداية، ومن تلك الصفات أنهم يعمرون مساجد الله، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وفي المراد بعمارة مساجد الله تعالى قولان:

الأول: عمارة معنوية؛ كالصلاة فيها، وذكر الله تعالى، وطلب العلم، وصونها عما لم تُبْنَ له من الخوض في الدنيا، وغير ذلك.

الثاني: عمارة حسية؛ كبنائها، وإصلاحها، وترميمها، وتطيبها، وكنسها، وفرشها، وتنويرها، وتعظيمها، وغير ذلك[١].

ودلت الآية على أن الشهادة لعُمَّار المساجد بالإيمان والصلاة صحيحة؛ لأن الله ربطها بها، وأخبر عنها بملازمتها[٢]، كما دلت الآية على الاهتداء الكامل لمن يقوم بذلك العمل إذ (عسى) من الله واجبة[٣].

---

(١) انظر: تفسير زاد المسير (٤٠٨/٣)، وتفسير البحر المحيط (٢٥/٥)، وتفسير البيضاوي (١٣٦/٣).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٩٠٦/٢).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي زمنين (١٩٨/٢).

ومن تلك الآيات قول الله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] والمعنى: طهراه من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله، معقلاً للطائفين، والعاكفين، والركع السجود[١]، ودخل في الآية بالمعنى جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة؛ وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حرمة، والأول أظهر، والله أعلم[٢].

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، فتقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت، وللتشويق إلى متعلق المجرور؛ وهو التسبيح وأصحابه، والتقدير: يسبح لله رجال في بيوت، ويكون قوله: ﴿فِيهَا﴾ تأكيداً لقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ لزيادة الاهتمام بها؛ وفي ذلك تنويه بالمساجد، وإيقاع الصلاة والذكر فيها[٣]، وأرجح الأقوال في معنى البيوت أنها المساجد؛ وهو قول الجمهور[٤]، و﴿أَذِنَ﴾ معناه: أمر وقضى، وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر، فإن اقترن بذلك أمرٌ وإنفاذ كان أقوى[٥].

وفي معنى قوله: ﴿تُرْفَعَ﴾ أقوال:

الأول: تبنى، كما قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ قاله مجاهد.

الثاني: تطهر من الأنجاس والأقذار، كقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦].

الثالث: أن تعظم؛ قاله الحسن[٦]، قال ابن العربي: «من قال: إنها ترفع فالرفع حساً كالبناء، وحكماً كالتطهير والتنظيف، وكما تطهر عن ذلك فإنها مطهرة عن اللغو والرفث»[٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٧٨).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٤٤).
(٣) انظر: تفسير ابن عاشور (١٨/٢٤٨).
(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٣٨٩)، وتفسير القرطبي (٢/٢٦٦)، وتفسير زاد المسير (٦/٤٦).
(٥) انظر: تفسير القرطبي (٢/٢٦٦).
(٦) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٣٨٩ - ١٣٩٠)، وتفسير زاد المسير (٦/٤٦ - ٤٧).
(٧) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٣٩٠).

والمعنى: أن الله تعالى أمر ببنائها ورفعها، وأمر بعمارتها وتطهيرها من الدنس، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، كما أمر سبحانه بتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها من المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله(١).

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين(٢).

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة تحض على بنيان المساجد، منها ما جاء عن أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ بَنَى مَسْجِداً»، قَالَ بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: «يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ، بَنَى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»، وفي رواية قال: «بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ»(٣). وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَمَرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ، وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ»(٤). وَأَمَرَ عُمَرُ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ، وَقَالَ: «أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ الْمَطَرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ»(٥). وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً نَشَدَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الأَحْمَرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ وَجَدْتَ، إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ»(٦).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٠٣/٣)، وتفسير السعدي (٣٧٤/٣).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٣٧٤/٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الصلاة، باب: من بنى مسجداً (١١٦/١) برقم (٤٥٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: المساجد، باب: فضل بناء المساجد والحث عليها (٣٧٨/١) برقم (٥٣٣).

(٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: اتخاذ المساجد في الدور (٣١٤/١) برقم (٤٥٥)، والترمذي في سننه كتاب: الجمعة، باب: ما ذكر في تطييب المساجد (٤٨٩/٢) برقم (٥٩٤)، وابن ماجه في سننه، كتاب: المساجد والجماعات، باب: تطهير المساجد وتطييبها (٢٥٠/١) برقم (٧٥٩)، والإمام أحمد في المسند (٢٧٩/٦) برقم (٢٦٤٢٩)، وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الصلاة، باب: بنيان المسجد (١١٥/١).

(٦) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٣٩٧/١) برقم (٥٦٩).

ولما بين تعالى أنه لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤] بين بالمقابل أنه لا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨][١].

الثاني: إطعام الطعام:

من أفضل أنواع البر والإحسان إطعام الطعام، إذ من جملة ما مدح الله تعالى به عباده الأبرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

فقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ تنبيه على المواساة؛ ومن أفضل المواساة وَضْعُها في هذه الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية[٢].

وذكر الطعام مع أن الإطعام يغني عنه؛ لأن أشرف أنواع الإحسان والبر إطعام الطعام[٣]، ولأن الطعام كالعلم فيما فيه قوام البدن، واستقامة البنية، وبقاء النفس؛ ففي التصريح به تأكيد لفخامة فعلهم على الآخرين[٤]. والظاهر أن المراد بإطعام الطعام حقيقته، وقيل: هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين، والمواساة معهم بأي وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه فكأنهم ينفعون بوجوه المنافع[٥].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٩٧/١).
(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٨٩٨/٤).
(٣) انظر: تفسير الخازن (٣٧٨/٤).
(٤) انظر: تفسير الآلوسي (٢٤٠/٢٩).
(٥) انظر: تفسير الآلوسي (٢٤٠/٢٩).

وقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حب الطعام، وقلته، وشهوتهم له، وحاجتهم إليه، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم(١)، إذ المحبة ميل النفس وتعلقها التعلق التام بالمحبوب، فيكون إخراجه على النفس أشق وأصعب من إخراج ما لا تتعلق به النفس ذلك التعلق(٢).

والطعام لا يكون صاحب الحب، وإنما الإنسان هو صاحب الحب، ولكن أضافه إلى الطعام لاتصال الحب منه(٣). وقيل: على حب الله (٤)عَزَّوَجَلَّ، والأول أمدح؛ لأن فيه الإيثار على النفس، وأما الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر(٥).

والأبرار يتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم(٦)، وهم المذكورون في الآية، ﴿مِسْكِينًا﴾ أي: ذا مسكنة، عن ابن عباس قال: «هو الطواف يسألك مالك». ﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: من يتامى المسلمين، وإنما أكد باليتيم؛ لأنه مسكين مضعوف بالوحدة وعدم الكافل مع عجز الصغر(٧)، ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: الذي يؤسر فيحبس، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقتادة، وسعيد بن جبير: «الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم». وقال قتادة: «لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وأن أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه». وقال مجاهد، وسعيد بن جبير أيضاً، وعطاء: «هو المسلم يحبس بحق؛ فإن الحق قد حبسه عن التصرف وأسره فيما وجب عليه، فقد صار له على الفقير المطلق حق زائد بما هو عليه من المنع عن التمحل في المعاش، أو التصرف في الطلب». وقال عكرمة: «الأسير: العبد». وقال أبو حمزة الشمالي: «الأسير: المرأة»(٨).

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٣٣٩/٥).
(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (٨٣١/٢).
(٣) انظر: تفسير السمعاني (١٩٥/٤).
(٤) انظر: تفسير البغوي (١٩١/٥).
(٥) انظر: تفسير البحر المحيط (٥٥٢/٨).
(٦) انظر: تفسير السعدي (٣٣٩/٥).
(٧) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٨٩٨/٤).
(٨) انظر: تفسير القرطبي (١٢٩/٢٩).

وإطعام المسكين واليتيم على التطوّع، والآية تضمنت مدحهم على إطعام الأسير، فإن في إطعام الأسير ثواباً عظيماً، وإن كان كافراً فإن الله يرزقه، وحفظاً لنفس الأسير من التلف إلى أن يتخير فيه الإمام، وهذا محمول على صدقة التطوع، فأما الفرض فلا يجوز صرفه إلى الكفَّار(١).

وجملة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] في محل نصب على الحال بتقدير القول، أي يقولون: إنما نطعمكم، أو قائلين: إنما نطعمكم، يعني: أنهم لا يتوقعون المكافأة، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك(٢). قال مجاهد: «لم يتكلموا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم»(٣)، وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] أي: لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام، ولا نريد منكم الشكر لنا، بل هو خالص لوجه الله، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها؛ لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة، ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه(٤).

الثالث والرابع والخامس: الأمر بالصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس:

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ففي هذه الآية دعاء من الله تعالى لعباده إلى ثلاثة من أمور التطوع، وهي من أعمال البر والإحسان، وهي على الإجمال: الحث على الصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس.

فقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ المعنى: لا خير في كثير مما يتناجى الناس ويتخاطبون به إذا لم يكن فيه خير، وهنا تربية اجتماعية دعت إليها المناسبة،

(١) انظر: أحكام القرآن (١٨٩٨/٤)، وتفسير زاد المسير (٤٣٤/٨)، وتفسير الشوكاني (٣٤٧/٥).
(٢) انظر: تفسير الشوكاني (٣٤٧/٥).
(٣) انظر: تفسير ابن أبي زمنين (٧١/٥).
(٤) انظر: تفسير الشوكاني (٣٤٧/٥).

فإن شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة، فلا يُصار إلى المناجاة إلا في أحوال قليلة أو نادرة يناسبها إخفاء الحديث(١).

وقد استثنى الله تعالى من المناجاة المنهي عنها أموراً دعا إليها فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال، أو علم، أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة؛ كالتسبيح والتحميد ونحوه، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ الله ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ؛ قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف: هو كل ما أمر الله به، أو ندب إليه من أعمال البر والخير، وهو الإحسان، والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي(٣)، والمعروف عام في كل بر، فيندرج تحته الصدقة والإصلاح؛ لكنهما جردا منه واختصا بالذكر اهتماماً، إذ هما عظيما الغناء في مصالح العباد، وعطف ﴿أَوْ﴾ فجعلا كالقسم المعادل مبالغة في تجريدهما، حتى صار القسم قسيماً(٤).

(١) انظر: تفسير ابن عشور (١٩٨/٥ - ١٩٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٦٩٧/١) برقم (١٠٠٦).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤٤٢/١).

(٤) انظر: تفسير البحر المحيط (٤٩٤/٣).

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ﴾ الإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره[1]، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ لم يبين هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا؟ ولكنه أشار في مواضع أخر أن المراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم هنا المسلمون خاصة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٠]، فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال: ١][2].

وقد حث الشارع الحكيم على الإصلاح في الدماء والأموال والأعراض[3]، بل وفي الأديان كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨][4]، وعن أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»[5].

والسعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القنوت في الصلاة، والصيام، والصدقة، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟»، قال: قلنا: بلى، قال: «إصلاحُ ذاتِ البين، وفساد

(١) انظر: تفسير السعدي (٤٤٢/١).
(٢) انظر: تفسير أضواء البيان (٤١٣/١).
(٣) انظر: تفسير الشوكاني (٥١٥/١)، وتفسير السعدي (٤٤٣/١).
(٤) انظر: تفسير السعدي (٤٤٣/١).
(٥) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الصلح، باب: ليس الكاذب الذي يُصْلِحُ بين الناس (١٦٦/٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٠١١/٤) برقم (٢٦٠٥).

ذات البين هي الحالقة»[1]، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله، كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١][2].

ولعل السرَّ - والله أعلم - في إفراد هذه الأقسامِ الثلاثةِ بالذكر؛ أن عملَ الخيرِ المتعدِّي إلى الناس إما لإيصال المنفعةِ، أو لدفع المضرَّةِ، والمنفعةُ إما جُسمانية كإعطاء المالِ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، وإما روحانيةٌ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾، وأما دفعُ الضرر فقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأمور المذكورةِ وهي الصدقة، والمعروف، والإصلاح؛ فإنه يشار به إلى متعدد، وما فيه من معنى البُعدِ مع قُرب العهد بها للإيذان ببُعد منزلتِها ورفعةِ شأنِها[4]، ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: طلب رضا الله بفعله ذلك، مخلصاً محتسباً ثواب ذلك عند الله [5] عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ أي: فسوف يعطيه الله تعالى جزاءً لما فعل من ذلك في الآخرة أجراً عظيماً، ولا حَدَّ لمبلغ ما سمى الله عظيماً يعلمه سواه[6]، فكمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت واقترن

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في إصلاح ذات البين (٥/٢١٨) برقم (٤٩١٩)، والترمذي في سننه، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، وقال: هذا حديث صحيح (٥/٦٦٣ - ٦٦٤) برقم (٢٥٠٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/٣٥٩) برقم (٢٥٩٢).

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/٤٤٣).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٢/١٩٧).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٢/١٩٧).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/٥٦٧).

(٦) انظر: تفسير ابن جرير (٧/٤٨١).

بها ما يمكن من العمل[1]، قرأ أبو عمرو وحمزة (يُؤْتِيه) بالياء، يعني: يؤتيه الله، وقرأ الجمهور: بنون العظمة، على الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[2].

السادس: الإنفاق في وجوه البر والإحسان:

ذكر الله تعالى الإنفاق في كتابه الكريم في آيات كثيرة ترغيباً فيه، وجعله تعالى باباً من أبواب البر والإحسان التي يتقرب بها العبد إلى ربه تعالى، وسُلّماً لمرضاته تعالى، ووعد الله تعالى المنفقين في سبيله بالأجر العظيم في الآخرة، وبمغفرة الذنوب، وبالخلف الطيب في الدنيا، ومن تلك الآيات الكريمة التي حث الله تعالى فيها عباده على الإنفاق في سبيله قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

أصل القرض في اللغة كما قال ابن فارس: «القاف والراء والضاد أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلُّ على القطع، يقال: قَرَضت الشيءَ بالمقراض، والقَرْض: ما تُعطيه الإنسانَ من مالك لتُقْضَاه، وكأنَّه شيء قد قطعتَه من مالك»[3]، والقرض الحسن إذا كان نفقة من الحلال، وقصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته[4]، وكانت من خيار المال لا من رُذاله[5]، وصرف المال في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس[6]، فالله تعالى يردُّه أضعافاً.

وقد سمى معاملته مع عبيده قرضاً وبيعاً وشراءً وتجارة. ومعنى ذلك كله أن العبد يعمل لوجه الله، والله جَلَّ وَعَلَا يعطيه ثواب ذلك العمل، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]،

(١) انظر: تفسير السعدي (٤٤٣/١).
(٢) انظر: النشر في القراءات العشر (٢٥١/٢ - ٢٥٢)، وتفسير البغوي (٧٠١/١)، وتفسير ابن عاشور (٢٠٠/٥).
(٣) معجم مقاييس اللغة (٧١/٥)، وانظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٦٦٦).
(٤) انظر: تفسير السعدي (٢٥٦/٥).
(٥) انظر: تفسير السمعاني (٤٥٥/٥).
(٦) انظر: تفسير الشوكاني (٢٣٩/٥).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۞ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ الآية [الصف: ١٠ - ١١]، مع قوله تعالى: ﴿تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩][١]، وهذا في التطوع من الأعمال كلها، كما قال الحسن [٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فمهما أنفق العبد من شيء فالله تعالى يخلفه، ومهما تصدق العبد من شيء فعلى الله سبحانه جزاؤه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ اللهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، أَوْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُومٍ»[٣].

ورتب الله تعالى على ذلك تضعيف القرض فجعل الواحد عشراً، إلى سبعمائة ضعف، بل إلى عدد غير معلوم، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

كما رتب تعالى على ذلك غفران الذنوب؛ كما في الحديث عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار»[٤].

وفي لفظ القرض تلطف في الاستدعاء، وفي لفظ المضاعفة تأكيد للبذل لوجه الله تعالى.[٥]

---

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٣٤٧/٨).

(٢) انظر: تفسير ابن أبي زمنين (٤٠٠/٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٥٢٢/١) برقم (٧٥٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤٠٢/٤).

(٤) راوه الترمذي في سننه، في كتاب: الإيمان عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ما جاء في حرمة الصلاة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح (١١/٥ - ١٢)، برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه في سننه، في كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (١٣١٤/٢) برقم (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩/٥) برقم (٥٠١٢).

(٥) انظر: تفسير البحر المحيط (٣٩١/٨).

وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب[1]، ثم أتبع جوابي الشرط بوصفين: أحدهما عائد إلى المضاعفة، إذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة، وحلمه مقابل للغفران[2]، ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ الشكور: فعول بمعنى فاعل مبالغة، أي كثير الشكر، وأطلق الشكر فيه على الجزاء بالخير على فعل الصالحات؛ تشبيهاً لفعل المتفضل بالجزاء بشكر المنعم عليه على نعمة، ولا نعمة على الله فيما يفعله عباده من الصالحات، فإنما نفعها لأنفسهم، ولكن الله تفضل بذلك حثاً على صلاحهم، فرتب لهم الثواب بالنعيم على تزكية أنفسهم، وتلطف لهم فسمَّى ذلك الثواب شكراً وجعل نفسه شاكراً، والشكر من الله هو جزاؤه المحسن على إحسانه[3]، ومجازاته له بالأجر الجزيل على العمل القليل، وشكره تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه[4]. وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: لا يعجل بالعقوبة مع كثرة الذنوب، بل يستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات، وقد أومأ إلى هذا المقصد إتباع صفة ﴿شَكُورٌ﴾ بصفة ﴿حَلِيمٌ﴾ تنبيهاً على أن ذلك من حلمه بعباده دون حق لهم عليه سبحانه[5]؛ فانظر إلى كرم الله تعالى، فما أكرمه تعالى! وما أعظمه! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه، ثم يسأله فضل ما أعطاه قرضاً، ثم يضاعفه، ثم يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه!.

(١) انظر: تفسير الآلوسي (٤٤٧/٢٨).
(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (٣٩١/٨).
(٣) انظر: تفسير السمعاني (٤٥٤/٥).
(٤) انظر: تفسير السعدي (٢٥٦/٥).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤٠٢/٤)، وتفسير ابن عاشور (٢٩١/٢٨).

السابع: الشفاعة للآخرين في أمور الخير:

حث الله تعالى عباده على الشفاعة للآخرين في أمور الخير، وبين تعالى أن ذلك قربة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، وسوف يؤتي العبد عليها أجراً عظيماً، بشرط صلاح النية، وابتغاء الأجر من الله تعالى، سواءً شُفع الشافع وقبلت شفاعته أم لا، فقال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]. قال مجاهد بن جَبْر: «نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض»(١).

والشفاعة هي ضمّ غيرك إلى جاهك ووسيلتك، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، واتصال منفعة إلى المشفوع له، والمراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا، ويُؤجر الشفيع على شفاعته وإن لم يُشفّع(٢).

والشفاعة الحسنة هي التي روعي فيها حق مسلم، ودُفع عنه بها شرٌ، أو جلب إليه خيرٌ، وابتغى بها وجه الله، ولم يؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله، ولا حق من الحقوق، والسيئة ما كان بخلاف ذلك(٣)، ووصفها بالحسنة وصف مخصص لها؛ لأن الشفاعة لا تطلق إلا على الوساطة في الخير، وأما إطلاق الشفاعة على السعي في جلب شر فهو مشاكلة، وقرينتها وصفها بسيئة، إذ لا يقال شفع للذي سعى بجلب سوء(٤)؛ فمن شفع لغيره وقام معه على أمر من أمور الخير؛ فـ ﴿لَّهُۥ نَصِيبٌ﴾ من شفاعته بحسب سعيه، وعمله، ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومَنْ عاون غيره على أمر من الشر كان عليه ﴿كِفْلٌ﴾ من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه، وفي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥٤٤/١)، وتفسير البغوي (٦٦٨/١)، وأحكام القرآن لابن العربي (٤٦٣/١).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٦٦٨/١)، وتفسير الشوكاني (٤٩٢/١)، وتفسير السعدي (٤١٢/١)، وتفسير ابن عاشور (١٤٣/٥).
(٣) انظر: تفسير الكشاف (١١٨/٢).
(٤) انظر: تفسير ابن عاشور (١٤٣/٥ - ١٤٤).

العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان[1]، ومعنى: ﴿كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب من وِزْرِها، فالتعبير بالنصيب في الشفاعة الحسنة، وبالكفل في الشفاعة السيئة للتفنن، وفرق بينهما بعض المحققين بأن النصيب يشمل الزيادة، والكفل هو المثل المساوي، فاختيار النصيب أولاً؛ لأن جزاء الحسنة يضاعف، والكفل ثانياً؛ لأن ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده، وقال بعضهم: إن الكفل وإن كان بمعنى النصيب، إلا أنه غلب في الشر وندر في غيره، كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨][2].

وقرر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي: شاهداً حفيظاً حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كُلاً ما يستحقه[3]. وعن أَبِي مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَتَاهُ السَّائِلُ، أَوْ صَاحِبُ الْحَاجَةِ قَالَ: «اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا وَلْيَقْضِ اللهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ»[4]. قال ابن حجر: «والأجر على الشفاعة ليس على العموم بل مخصوص بما تجوز فيه الشفاعة وهي الشفاعة الحسنة، وضابطها ما أذن فيه الشرع دون ما لم يأذن فيه كما دلت عليه الآية»[5].

الثامن: العفو عن من قتل خطأً:

ربما يزهق مسلم خطأً روح مسلم آخر يعبد الله تعالى ويوحده، ومع ذلك رغب الشارع الحكيم وليّ المقتول في العفو عمن قتل خطأً، وبين أن ذلك من الصدقة التي يؤجر عليها المسلم، فقال الله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ

---

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٤١٢).
(٢) انظر: تفسير الآلوسي (٥/١٢٨).
(٣) انظر: تفسير السعدي (١/٤١٢).
(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: قول الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ (٧/٨٠) برقم (٦٠٢٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: البر والصلة والآدب، باب: استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٣/٢٠٢٦) برقم (٢٦٢٧).
(٥) فتح الباري (١٠/٤٦٦).

مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢]، والمعنى: فعليه تحرير رقبة مؤمنة من ماله، ودية مسلمة تؤديها عاقلته إلى أهله[١]، فيجب على القاتل عتق رقبة، ودفع دية، أما الرقبة ففي مال القاتل، وأما دفع الدية فقد أجمل القرآن الكريم على من يجب عليه دفعها، وبينته السنة بأنهم العاقلة، وذلك تقرير لما كان عليه الأمر قبل الإسلام، والعاقلة: القرابة من القبيلة، تجب على الأقرب فالأقرب بحسب التقدم في التعصيب[٢]، فإن لم تكن فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله، ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أي: يتصدق أهل المقتول خطأ على القاتل[٣]، وجعل الله تعالى عفو أهل القتيل عن أخذ الدية صدقة منهم، ترغيباً في العفو؛ وفي ذلك حث لهم على العفو لأن الله سمَّاها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت[٤]، وجاء بلفظ التصدق تنبيهاً على فضيلة العفو وحضاً عليه، وأنه جارٍ مجرى الصدقة، واستحقاق الثواب الآجل به دون طلب العرض العاجل، وهذا حكم من قتل في دار الإسلام خطأ[٥].

التاسع والعاشر: إنظار المعسر والوضع عنه:

تمر بالمسلم في بعض الأوقات ظروف يحتاج معها إلى أن يستدين بعض المال ليقضي حاجته؛ وربما يتعسر عليه رد ذلك الدين - ليس عن تفريط، ولا استخفاف بحقوق الناس - فجاءت الشريعة الغراء بالندب إلى إنظار المعسر إلى أن ييسر الله تعالى أمره، كما رغبت في وضع الدَّيْن، أو شيء منه، وبين الله تعالى أن ذلك الفعل خير، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ أي: لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٣٠٥/٧).
(٢) انظر: تفسير ابن عاشور (١٦١/٥).
(٣) انظر: انظر: تفسير الآلوسي (١٤٨/٥).
(٤) انظر: تفسير السعدي (٤١٨/١).
(٥) انظر: تفسير البحر المحيط (٤٥٨/٣).

إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي، وإما أن تربي، ثم ندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين(١).

قال البغوي: «يعني: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، رفع الكلام باسم كان ولم يأت لها بخبر، وذلك جائز في النكرة، تقول: إن كان رجلٌ صالحٌ فأكرمه، وقيل: ﴿كَانَ﴾ بمعنى وقع، وحينئذ لا يحتاج إلى خبر، قرأ أبو جعفر: ﴿عُسْرَةٍ﴾ بضم السين، ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ أمر في صيغة الخبر تقديره: فعليه نظرة ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾، وقرأ نافع: ﴿مَيْسُرَةٍ﴾ بضم السين، وقرأ الآخرون: بفتحها، وقرأ مجاهد: (ميسُرِه) بضم السين مضافاً، ومعناها اليسار والسعة، ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ أي: تتركوا رؤوس أموالكم إلى المعسر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قرأ عاصم: ﴿تَصَدَّقُوا۟﴾ بتخفيف الصاد والآخرون بتشديدها»(٢).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ عامة في جميع الناس، فكل من أعسر أُنظر، وهذا قول أبي هريرة والحسن وعامة الفقهاء»(٣).

وإنظار المعسر والوضع عنه فيه الأجر الكبير، والثواب الجزيل. قال ابن العربي: «قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قال علماؤنا: الصدقة على المعسر قربة، وذلك أفضل عند الله من إنظاره إلى الميسرة... وهذا مما لا خلاف فيه»(٤).

وذلك لما فيه من تفريج كربة، ومن فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والجزاء من جنس العمل، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٣٩/١).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٣٨٨/١)، والنشر في القراءات العشر (٢٣٦/٢).
(٣) تفسير القرطبي (٣٧٢/٣).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٢٤٦/١).

مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1]. قال ابن حجر: «قوله: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً» أي: غمة، والكرب هو الغم الذي يأخذ النفس»[2]، وأي غم يأخذ بالنفس أعظم من الدَّيْن، الذي هو هَمٌّ بالليل وغَمٌّ بالنهار؟

ومن ثمار هذا العمل الجليل أن صاحبه من الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم القيامة، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِينَا أَبَا الْيَسَرِ، صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ غُلاَمٌ لَهُ مَعَهُ ضِمَامَةٌ مِنْ صُحُفٍ، وَعَلَى أَبِي الْيَسَرِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ، وَعَلَى غُلاَمِهِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ، فَقَالَ لَهُ أَبِي: يَا عَمِّ إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِكَ سَفْعَةً مِنْ غَضَبٍ، قَالَ: أَجَلْ؛ كَانَ لِي عَلَى فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ الْحَرَامِيِّ مَالٌ، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَسَلَّمْتُ، فَقُلْتُ: ثَمَّ هُوَ؟ قَالُوا: لاَ، فَخَرَجَ عَلَيَّ ابْنٌ لَهُ جَفْرٌ، فَقُلْتُ: لَهُ أَيْنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: سَمِعَ صَوْتَكَ فَدَخَلَ أَرِيكَةَ أُمِّي، فَقُلْتُ: اخْرُجْ إِلَيَّ فَقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ أَنْتَ! فَخَرَجَ، فَقُلْتُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنِ اخْتَبَأْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَنَا وَاللهِ أُحَدِّثُكَ ثُمَّ لاَ أَكْذِبُكَ؛ خَشِيتُ وَاللهِ أَنْ أُحَدِّثَكَ فَأَكْذِبَكَ، وَأَنْ أَعِدَكَ فَأُخْلِفَكَ، وَكُنْتَ صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُنْتُ وَاللهِ مُعْسِراً، قَالَ: قُلْتُ: آللهِ؟ قَالَ: اللهِ، قُلْتُ: آللهِ؟ قَالَ: اللهِ، قُلْتُ: آللهِ؟ قَالَ: اللهِ، قَالَ: فَأَتَى بِصَحِيفَتِهِ فَمَحَاهَا بِيَدِهِ، فَقَالَ: إِنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِنِي، وَإِلاَّ أَنْتَ فِي حِلٍّ، فَأَشْهَدُ بَصُرَ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ - وَوَضَعَ إِصْبَعَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ - وَسَمْعُ أُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى مَنَاطِ قَلْبِهِ - رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ...» الحديث[3].

ومن ثماره كذلك تجاوزُ الله تعالى عن صاحبه يوم القيامة، فعن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَلَقَّتِ الْمَلاَئِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَالُوا:

(١) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٣/٩٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الظلم (٣/١٩٩٦) برقم (٢٥٨٠)، واللفظ للبخاري.

(٢) فتح الباري (٥/١١٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: الزهد والرقائق، باب: حديث جابر الطَّويل وقصة أَبي الْيَسرَ (٣/٢٣٠١) برقم (٣٠٠٦).

أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئاً؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا وَيَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ: قَالَ: فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ»(١).

الحادي عشر: كتابة الحقوق والديون:

من الأعمال التطوعية التي أرشد الله تعالى إليها، وفيها منفعة للمسلمين، كتابة الديون والحقوق، لمن طُلِبَ إليه كتابتها، ووجد غيره من الكتبة، وهذا من الإحسان والرفق بالمسلمين. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ نهي من الله للكاتب عن الإباء. واختلف الناس في وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد، فقال الطبري والربيع: «واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب». وقال الحسن: «ذلك واجب عليه في الموضع الذي لا يُقدرُ على كاتب غيره، فيضر صاحب الدين إن امتنع، فإن كان كذلك فهو فريضة، وإن قَدُرَ على كاتب غيره فهو في سعة إذا قام به غيره». وقال السدي: «واجب عليه في حال فراغه»(٢).

فينبغي لمن يعرف الكتابة إذا سُئِل أن يكتبَ للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، ألَّا يمتنع؛ ولْيتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب(٣)، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ»، قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَغْلاَهَا ثَمَناً وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟، قَالَ: «تُعِينُ صَانِعاً، أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ»، قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ»(٤).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: البيوع، باب: من أنظر موسراً (٧٥/٣) برقم (٢٠٧٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: المساقاة، باب: فضل إنظار المعسر (١١٩٤/٢) برقم (١٥٦٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٨٤/٣ - ٣٨٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣٤٣/١).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب العتق، باب: أي الرقاب أفضل (١١٧/١) برقم (٢٥١٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٨/١ - ٨٩) برقم (٨٤).

الثاني عشر: تحمل الشهادة وأداؤها:

من أعمال البر والإحسان تحمل الشهادة وأداؤها عند طلبها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، عن الحسن قال: «جمعت هذه الآية أمرين، وهما: ألا تأبى إذا دعيت إلى تحميل الشهادة، ولا إذا دعيت إلى أدائها»، وقاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال قتادة والربيع وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً: «أي: لتحملها، وإثباتها في الكتاب». وقال مجاهد: «معنى الآية: إذا دعيت إلى أداء شهادة، وقد حصلت عندك»(١).

قال ابن عطية: «والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة الندب، فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم، فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود، والأمن من تعطيل الحق فالمدعو مندوب، وله أن يتخلف لأدنى عذر، وإن تخلف لغير عذر فلا إثم عليه، ولا ثواب له، وإذا كانت الضرورة، وخيف تعطل الحق أدنى خوف؛ قوي الندب، وقرب من الوجوب، وإذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة، فواجب عليه القيام بها، لا سيما إن كانت محصلة، وكان الدعاء إلى أدائها، فإن هذا الظرف آكد، لأنها قلادة في العنق وأمانة تقتضي الأداء»(٢).

وقال ابن العربي: «الصحيح عندي أن المراد هاهنا حالة التحمل للشهادة؛ لأن حالة الأداء مبينة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وإذا كانت حالة التحمل فهي فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن البعض؛ لأن إباية الناس كلهم عنها إضاعة للحقوق، وإجابة جميعهم إليها تضييع للأشغال؛ فصارت كذلك فرضاً على الكفاية»(٣).

وقال ابن كثير: «قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس، وهذا كقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٩٨).
(٢) تفسير ابن عطية (١/٣٥٨).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١/٢٥٦).

يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ومن هاهنا استفيد أنَّ تَحَمُّل الشهادة فرض كفاية، قيل: وهو مذهب الجمهور، المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢] للأداء، لحقيقة قوله: ﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمَّل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت، وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم. وقال مجاهد وأبو مِجْلَز، وغير واحد: «إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب»[1].

(١) تفسير ابن كثير (٣٤٣/١).

المبحث الرابع
نماذج من المتطوعين من خلال القرآن الكريم

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم جملة من الذين قاموا بأعمال حسنة صالحة، تطوعوا بفعلها طلباً للأجر والثواب من الله تعالى، فكانت هذه النماذج نبراساً لمن أراد أن يقوم بأعمال تطوعية، وكان في مقدمة من ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم أشرف خلقه أجمعين نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجملة من أولي العزم من الرسل، وطائفة من الأنبياء، ومن صالحي الأمم السابقة، ومن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذه نماذج من أولئك المتطوعين:

١. ذكر شيء من الأعمال التي تطوع بها النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القدوة والأسوة المطلقة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولمن بعدهم في الأعمال التطوعية، فما من باب من أبواب الخير والتطوع التي دعا إليها الله تعالى في كتابه الكريم إلا كان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها سهم، وكان أول ما قالت له زوجه خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندما جاءها بعد نزول الوحي إليه: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وتُكسِبُ المعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[1]، فهذه جملة من الأمور التي كان يفعلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل نزول الوحي عليه، فما الشأن إذاً بعد الوحي؟ لقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتطوع بأعمال كثيرة، نَفْعُها متعدٍ، وكل تلك الأعمال إنما هي من فيض رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمته، وقد وصفه الله تعالى في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فهذه الآية الكريمة تدل على أن هذا الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: التعبير، باب التعبير وأول ما بدئ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرُّؤْيَا الصالحة (٦٧/٨) برقم (٦٩٨٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٣٩/١) برقم (١٦٠).

من أنفسنا، وأنه متصف بصفات مُشْعِرة بغاية الكمال، وأنه متصف بغاية الشفقة علينا، والرحمة بنا، ومن آثار رحمته ﷺ تعليمه لنا أنواع العلوم والمعارف والكمالات(١).

وهذه بعض الأمثلة بأعمال تطوع بها عليه الصلاة والسلام:

أ. شراء النبي ﷺ لأرض المسجد النبوي ووقفه لها:

أول ما قدم النبي ﷺ المدينة اشترى أرضاً لبناء مسجده، وكانت محله مِرْبَداً للتمر يملكه غلامان يتيمان في حِجر أسعد بن زرارة، فدعا الغلامين، وساومهما بالمِربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما(٢)، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النبي ﷺ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى ملأٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَقَالَ: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا»، قَالُوا: لاَ وَاللهِ لاَ نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلاَّ إِلَى اللهِ، فَقَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ، قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَفِيهِ خَرِبٌ وَفِيهِ نَخْلٌ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَةْ، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةْ»(٣).

ب. تعاوُنُ النبي ﷺ في بناء المسجد:

قام النبي ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم في بناء مسجده ﷺ، وكان يحثهم على العمل فيرجز تنشيطاً لهم على العمل، حيث كان في أرض المسجد قبور

(١) انظر: تفسير الآلوسي (٧٧/١١).

(٢) انظر: زاد المعاد (٦٢/٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الصلاة، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد؟ (١١١/١) برقم (٤٢٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ابتناء مسجد النبي ﷺ (٣٧٣/١) برقم (٥٢٤)، وهذا لفظ البخاري.

للمشركين وخرب ونخيل، قَالَ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَةْ، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةْ»[1].

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعملون بجد ونشاط مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بناء المسجد، حتى قال قائل من المسلمين في ذلك:

(لـــئن قعدنـــا والنـــبي يعمـــل ذاك إذاً للعمـــل المضلـــل

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لا يســـتوي مـــن يعمـــر المســـاجدا
يـــدأب فيهـــا قائمـــاً وقاعـــدا
ومـــن يـــرى عـــن الـــتراب حائـــدا)[2]

بل كان منهم من يتحمل المشقة في عمل البر[3] والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفف عنهم، يقول أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً، وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَرَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ»، قَالَ: يَقُولُ: عَمَّارٌ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ[4].

ج. مشاركته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حفر الخندق:

كان حفر الخندق مقسوماً على الناس، فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمل مع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ويحثهم على العمل، فعن البراء بن عازب

(١) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الصلاة، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد؟ (١١١/١) رقم (٤٢٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ابتناء مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣٧٣/١) رقم (٥٢٤)، وهذا لفظ البخاري.

(٢) انظر: فتح الباري (٢٩١/٧).

(٣) انظر: فتح الباري (٦٤٥/١).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (١١٥/١) رقم (٤٤٧).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِّي التُّرَاب جِلْدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعَرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ، وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التُّرَابِ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»

قَالَ: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا[1].

د. سعي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإصلاح بين الناس:

طبق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الله تعالى لعباده بالإصلاح بين الناس على أكمل وجه وأتمّه، وفي سائر أوجه الإصلاح، إذ الصلح أقسام: صلح المسلم مع الكافر، والصلح بين الزوجين، والصلح بين الفئة الباغية والعادلة، والصلح بين المتغاضبين، والصلح في الجراح كالعفو على مال، والصلح لقطع الخصومة إذا وقعت المزاحمة، إما في الأملاك، أو في المشتركات[2]، وبوَّب الإمام البخاري لأبواب من الصلح عديدة، وذلك في كتاب الصلح من صحيحه[3].

وهذه أمثلة من مواقفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإصلاح بين الناس:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ»[4].

(١) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤٧/٥) برقم (٤١٠٦). وانظر: تفسير القرطبي (١٣٠/١٤).
(٢) انظر: فتح الباري (٣٥١/٥).
(٣) انظر: صحيح البخاري (١٦٦/٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢).
(٤) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الصلح، باب: قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح (١٦٦/٣) رقم (٢٦٩٣).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ ثَلاَثِينَ وَسْقاً لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَاسْتَنْظَرَهُ جَابِرٌ فَأَبَى أَنْ يُنْظِرَهُ، فَكَلَّمَ جَابِرٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَشْفَعَ لَهُ إِلَيْهِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَلَّمَ الْيَهُودِيَّ لِيَأْخُذَ ثَمَرَ نَخْلِهِ بِالَّذِي لَهُ فَأَبَى، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّخْلَ فَمَشَى فِيهَا، ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ: «جُدَّ لَهُ فَأَوْفِ لَهُ الَّذِي لَهُ»، فَجَدَّهُ بَعْدَ مَا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْفَاهُ ثَلاَثِينَ وَسْقاً وَفَضَلَتْ لَهُ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسْقاً، فَجَاءَ جَابِرٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَهُ بِالَّذِي كَانَ فَوَجَدَهُ يُصَلِّي الْعَصْرَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُ بِالْفَضْلِ، فَقَالَ: «أَخْبِرْ ذَلِكَ ابْنَ الْخَطَّابِ»، فَذَهَبَ جَابِرٌ إِلَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ عَلِمْتُ حِينَ مَشَى فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيُبَارَكَنَّ فِيهَا[1].

هـ. نصرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمظلوم:

من العهود التي كانت في الجاهلية وأقرها الإسلام حلف الفضول، وكان قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر[2]، وكان على نفي الظلم والجور عن القاطنين بمكة، وذلك تحقيق لعهد الله تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجعل مكة بلداً آمنا[3].

قال ابن هشام: «اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جدعان - لشرفه ونسبه - فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول»[4]، وهو الذي قال فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفاً مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوِ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لأَجَبْتُ»[5]، وهذا الحلف هو المراد في حديث

(١) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: في الاستقراض، باب: إِذَا قَاصَّ، أَوْ جَازَفَهُ فِي الدَّيْنِ تَمْراً بِتَمْرٍ أَوْ غَيْرِهِ (٨٤/٣) رقم (٢٣٩٦).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٧١/٢).

(٣) انظر: تفسير ابن عاشور (١٦٩/٨).

(٤) سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن هشام (١٤٥/١).

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى، في كتاب: قسم الفيء والغنيمة، باب: إعطاء الفيء على الديوان ومن تقع به البداية (٣٦٧/٦) برقم (١٣٤٦١).

جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلاَمُ إِلاَّ شِدَّةً»(١)، وإنما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك لأنه موافق للشرع إذ أمر بالانتصاف من الظالم، وأما ما كان من عهودهم الفاسدة وعقودهم الباطلة على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام والحمد لله(٢).

٢. إكرام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للضيف:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم إكرام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للضيف في ثلاث سور، هي سورة هود، وسورة الحجر، وسورة الذاريات، قال الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٨].

بين الله تعالى إكرام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لضيفه فقال هنا: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، وفي موضع آخر: ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، والحنيذ: المشوي. فوصفه بالطيبين: طيب السمن، وطيب العمل بالإشواء، وهو أطيب في التناول؛ وكان الشواء أسرع طبخ أهل البادية؛ فكان لإبراهيم فيه ثلاث خصال: الضيافة، والمبادرة بها، وأنها أجود ما عنده(٣).

ومجيء الفاء لعطف أفعال: ﴿فَرَاغَ﴾، ﴿فَجَآءَ﴾، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾ للدلالة على أن هذه الأفعال وقعت في سرعة، والإسراع بالقرى من تمام الكرم(٤).

وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تلطف في العبارة، وعرض حسن، والعرض على الضيف عقب وضع الطعام بين يديه زيادة في الإكرام؛ وفيه إظهار الحرص على ما ينفع الضيف، وإن كان وضع الطعام بين يديه كافياً في تمكينه منه(٥).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: فضائل الصحابة، باب: مؤاخاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (١٩٦١/٢) رقم (٢٥٣٠)، وأبو داود في سننه، في كتاب: الفرائض، باب: في الحلف (٣٣٨/٣) رقم (٢٩٢٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٣/٦).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٠٦٣/٣)، وتفسير ابن عاشور (٣٥٩/٢٩).

(٤) انظر: تفسير ابن عاشور (٣٥٩/٢٩).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٢٥٢/٤)، وتفسير ابن عاشور (٣٦٠/٢٩).

والهمزة في ﴿أَلَا﴾ للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب؛ إن قاله أول ما وضعه، وللإنكار؛ إن قاله حينما رأى إعراضهم[1].

ولما لم يأكلوا طعامه - والحال أنه لا يعرف حقيقتهم - أخبر الله عنه بقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ولما رأت الملائكة منه ذلك ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

وللضيافة آداب وأحكام ليس هذا محلَّ ذِكْرها وتفصيلها[2].

٣. تطوع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأعمال جليلة لأهل السجن:

كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد اشتهر في السجن بجملة من الأمور منها الجود، والأمانة، وتعبير الرؤى للمسجونين، والإحسان إلى أهل السجن كعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم. وكل هذه الأعمال إنما هي من باب التطوع، وهي أعمال جليلة قدمها لأهل السجن حتى استحق أن يصفوه بأنه من المحسنين، قال الله تعالى ذاكراً قول السجينين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما طلبا منه تأويل رؤياهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦][3].

٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتطوع بالسقي لامرأتين:

ذكر الله تعالى ما قام به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من عمل تطوعي في كتابه الكريم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٤].

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٢٣٨/٥).

(٢) انظر: آداب الضيافة المستفادة من الآيات في: آيات الأحكام لابن العربي (١٠٦١/٣)، وتفسير القرطبي (٦٤/٩) (٤٦/١٧)، وتفسير البحر المحيط (١٩٧/٨)، وتفسير ابن كثير (٢٥٢/٤)، وتفسير أضواء البيان (١٥٠/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤٩٥/٢).

ففي هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد فراره من فرعون ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: بلغ ماء بلاد مدين، ويناسب الغريب إذا جاء ديار قوم أن يقصد الماء؛ لأنه مجتمع الناس، فهنالك يتعرف لمن يصاحبه، ويضيفه[1]، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ حابستين غنمهما عن حياض الناس، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ فليس لنا قوة نقتدر بها، ولا رجال يزاحمون القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم، وفي الآية دليل على بخل تلك الأمة، وعدم مروءتهم إذ لم يقوموا بالسقي للمرأتين[2] مع ما وصفتا به أباهما ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وفي هذا اعتذار لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، واستعطاف في إعانتهما، وقد طابق جوابهما سؤاله؛ فرقَّ لهما عَلَيْهِ السَّلَامُ ورحمهما[3]، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، ولا يدفعه لذلك إلا رأفة بهما، وغوث لهما، ورحمة عليهما ومنشأ الترحم كونهما على الذود، وكون الأمة من الناس على السقي، فسارع إلى السقي لهما، ومن قوة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء عند الوصول من نصب السفر، وكثرة الجوع، ومع ذلك أغاثهما وكفاهما أمر السقي[4]، ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ التولي: الرجوع على طريقه، وذلك يفيد أنه كان جالساً من قبل في ظل فرجع إليه، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، مستريحاً في ذلك الظلال بعد التعب[5].

وقد أعقب إيواءه إلى الظل بمناجاته ربه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لما استراح من مشقة سقي الماشية، والاقتحام بها في الرعاء، ووجد برد الظل؛ تذكر

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٩٨/٢٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٩٥/٣)، وتفسير السعدي (١٣/٤).
(٣) انظر: تفسير البحر المحيط (١٤٧/٧)، وتفسير السعدي (١٣/٤).
(٤) انظر: تفسير البحر المحيط (١٤٧/٧)، وتفسير الآلوسي (٣٦٣/٢٠)، وتفسير السعدي (١٣/٤)، وتفسير ابن عاشور (١٠١/٢٠).
(٥) انظر: تفسير السعدي (١٣/٤)، وتفسير ابن عاشور (١٠١/٢٠).

بهذه النعمة نعماً سابقة أسداها الله إليه من نجاته من القتل، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، وإيصاله إلى أرض معمورة بأمة عظيمة، بعد أن قطع فيافي ومفازات، تذكر جميع ذلك وهو في نعمة برد الظل والراحة من التعب، فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء وهي: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً.

وكان فعل موسى معروفاً محضاً لا يطلب عليه جزاء؛ لأنه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما(١).

٥. بناء الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ الجدار تطوعاً:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ قد بنى جداراً في قرية أهلها بخلاء تطوعاً بلا مقابل، فقال الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

فقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وإظهار لفظ ﴿أَهْلَهَا﴾ دون الإتيان بضميرهم بأن يقال: استطعماهم، لزيادة التصريح، تشنيعاً بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيفوهما شحّاً وبخلاً، وهذا اللؤم والبخل لم يمنع الخضر من التطوع لبناء الجدار، يقول تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾.

ومعنى ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أشرف على السقوط، وذلك بأن مال، فعبر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ إقامة الجدار: تسوية ميله، والمعنى: فهدمه ثم قعد يبنيه.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٥٣٠/٣)، وزاد المسير (٢١٤/٦)، وتفسير أبي السعود (١١٩/٥)، وتفسير السعدي (١٣/٤ - ١٤)، وتفسير ابن عاشور (١٠٢/١٦، ١٠٤).

فضجر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى تكلف الخضر، وما ليس عليه صبر ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قد استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يُضَيّفونا، ثم قعدت تعمل من غير صنيعة، ولو شئت لطلبت عليه أجراً، ونحن بحاجة إلى ما ننفقه على أنفسنا، إذ نحن جائعون، وفي قرية أهلها بخلاء، لا يطعمون جائعاً، ولا يستضيفون ضيفاً، فلا أقل من أن تصيب عليه أجراً نأكل منه.

وهذا اللوم يتضمن سؤالاً عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر، وليس هو لوماً على مجرد إقامته مجاناً، لأن ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم.

وفيه تحريض على أخذ الجعل ليتعيشا به، أو تعريض بأن فعله ذلك فضول وتبرع بما لم يطلب إليه، من غير جُعْلٍ يأخذه، ولا استحقاق لمن فُعِل له، مع كمال الاحتياج إلى خلافه، لما في ﴿لَوْ﴾ من النفي، كأنه لما رأى الحِرْمان، ومساس الحاجة، واشتغاله بما لا يعنيه، لم يتمالك نفسه، فقال ذلك القول.

٦. مسارعة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الخيرات:

مدح الله تعالى في كتابه الكريم أنبياءه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بصفات كثيرة؛ ومن تلك الصفات مسارعتهم في أعمال البر والإحسان، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فقوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ ينصرف إلى جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين ذكرهم في سورة الأنبياء، وقيل: لزكريا وزوجه ويحيى[١].

وقوله: ﴿يُسَارِعُونَ﴾ السُّرْعَةُ: ضدّ البطء، ويستعمل في الأجسام، والأفعال، والمسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة، لكن لفظة المسارعة إنما تستعمل في الخير[٢]، والمسارعة مستعارة للاستكثار من الفعل، والمبادرة إليه، تشبيهاً للاستكثار والاعتناء

(١) انظر: تفسير البغوي (٣١٥/٣)، وتفسير البحر المحيط (٤١٠/٦ - ٤١١)، وتفسير ابن كثير (٢٠٣/٣)، وتفسير الآلوسي (١١٥/١٧).

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٤٠٧)، وتفسير الخازن (٥٩/٤).

بالسير السريع لبلوغ المطلوب، وكثيراً ما يتعدى أسرع بـ ﴿فِي﴾ التي للظرفية؛ لما فيه من معنى الجد والرغبة؛ فليست ﴿فِي﴾ بمعنى إلى أو للتعليل، وفي هذا إيذان بتشبيه ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزية السرعة في قطعه(١).

وقوله: ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ للعموم، فيتناول كل أعمال البر والإحسان مما هو واجب أو تطوع، ومعناها يدل على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه(٢).

والمعنى: إنهم كانوا يجدُّون ويرغبون في عمل القُربات وفعل الطاعات، ويبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، وينتهزون الفرصة فيها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير، ومعرفتهم بفوائده، وحسن عوائده، وهم كذلك غير متثاقلين ولا كسالى(٣).

وبهذا ثبت أن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كانوا فاعلين لكل خير، وتاركين لكل منهي(٤).

وفي هذا دليل على أن المبادرة إلى الأعمال الصالحة؛ هو الأفضل، ومَدْحُ الباري أدل دليل على صفة الفضل في الممدوح على غيره، والله أعلم(٥).

٧. تطوع ذي القرنين ببناء الردم:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم قصة تطوع ذي القرنين ببناء الردم الفاصل بين الناس وبين يأجوج ومأجوج المفسدون في الأرض، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۞ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۞ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ

(١) انظر: تفسير الآلوسي (١١٦/١٧)، وتفسير ابن عاشور (٥٨/٤).
(٢) انظر: تفسير الخازن (٢١٦/٣).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢٠٣/٣)، وتفسير الآلوسي (١١٥/١٧)، وتفسير السعدي (٢٦٩/٣).
(٤) انظر: تفسير الخازن (٢١٦/٣).
(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٣١٨/٣).

ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا * فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا * قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف: ٩٣ - ٩٨].

فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، تعريف ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ تعريف الجنس، أي بين سدين معينين، معروفين، معلومين في ذلك الزمان، بينهما ثَغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على البلاد المجاورة، والمراد بالسدين هنا الجبلان، وبالسد المفرد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عينت المراد من هذا اللفظ المشترك.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما، ﴿قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿يُفۡقِهُونَ﴾ بضم الياء وكسر القاف؛ من أفقه إذا أبان، أي: لا يُفقِهون غيرهم كلاماً؛ وذلك لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس، وتوغلهم في البداوة والبلاهة، وقرأ الباقون ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ بفتح الياء والقاف؛ أي: لا يعلمون شيئاً من قول غيرهم فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة، ولا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم، والقراءتان صحيحتان، والمعنيان متلازمان(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ افتتاحهم الكلام بالنداء، دليل على أنهم نادوه نداء المستغيثين المضطرين، ونداؤهم إياه بلقب ذي القرنين دليل على أنه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده، أي: قالت له أمة من الإنس صالحة، فعلى القراءة الأولى أمكنهم أن يفهم مرادهم بعد لَأْيٍ، وعلى القراءة الثانية هم لا يدركون ما يُطلب منهم من طاعة ونظام، ومع ذلك يعربون عما في نفوسهم من الأغراض مثل إعراب الأطفال(٢).

فاشتكوا إليه ضرر ﴿يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كما ثبت في الصحيحين منْ حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (٣) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يعيثون في الأرض فساداً بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك، من إهلاك الحرث والنسل.

(١) انظر: النشر في القراءات العشر (٣١٥/٢)، وتفسير القرطبي (٥٥/١١).

(٢) انظر: تفسير ابن عاشور (٣٤/١٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ (٢٤١/٥) رقم (٤٧٤١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: الإيمان، باب: قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» (٢٠١/١) رقم (٢٢٢)، وهذا لفظ البخاري.

والاستفهام في قوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ مستعمل في العرض، على جهة حسن الأدب، والخرج: المال الذي يدفع للملك، وهو بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء في قراءة الجمهور، ويقال فيه: الخراج، بألف بعد الراء، وكذلك قراءة حمزة، والكسائي، وخلف[1]، والخرج أخص من الخراج، أي: نجعل لك أجراً عظيماً من أموالنا، فأرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حاجزاً فلا يصلون إليهم.

وإسنادُ الجعل المذكور في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ إلى ذي القرنين مع أنه فعلُ الفَعَلة للتنبيه على أنه العُمدة في ذلك وهم بمنزلة الآلةِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ دليل على فعله ذلك بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير، فلم يكن ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، بل كان قصده الإصلاح؛ لذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره فقال لهم: ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يعني: عدداً من الرجال وآلات البناء، فاخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أن الأموال لا تغني دونهم فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى[2].

وتَطَوَّع ذو القرنين بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين، والردم: سدّ الثّلمة بالحجر[3]، وهو في اللغة أكثر وأبلغ من السد؛ لأن الردم ما جعل بعضه على بعض، يقال: ثوب مُرْدَم، إذا كان قد رقع رقعة فوق رقعة، ويقال لكل ما كان مسدوداً خِلْقَةً: سُد بالضم، وما كان من عمل الناس: فهو سَد بالفتح، وقد قيل: إنهما لغتان بمعنى واحد سَد وسُد بالفتح والضم[4]، أي: أجعل مانعاً من عبورهم عليكم.

(١) انظر: النشر في القراءات العشر (٣٥٤/٢).
(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٢٤٨/٣)، وتفسير القرطبي (٦٠/١١).
(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٣٥٠).
(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص وابن كثير وأبو عمرو بفتح السين، وقرأ الباقون بضمها. انظر: النشر في القراءات العشر (٣٥٤/٢)، وتفسير ابن أبي زمنين (٨١/٣)، وتفسير القرطبي (٥٩/١١)، ومفردات ألفاظ القرآن (ص٤٠٣).

وقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: أعطوني، أمرهم بنقل الآلة، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التي بغير معنى الهبة، واستدعاء للمناولة؛ لأنه قد ارتبط من قوله لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبق إلا استدعاء المناولة وأعمال الأبدان ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ الزبر: جمع زُبْرَة، وهي القطعة العظيمة من الحديد(١)، وفي الكلام حذف تقديره: فأَتَوه بقطع الحديد وبالحطب، فأمر برصّ بعضها فوق بعض، فلم يزل يجعل الحديد على الحطب، والحطب على الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ أشعرت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بشيء مغياً قبلها(٢)، يعني: البناء؛ فحذف لقوة الكلام عليه، ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ هما جانبا الجبل، والمعنى: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً - واختلفوا في مساحة عرض الردم وطوله على أقوال - ﴿قَالَ انفُخُوا۟﴾ وفي القصة: أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد، ثم قال: انفخوا، يعني: في النار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: صار الحديد ناراً، ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ الإفراغ: الصب، والقطر: هو النحاس المذاب عند أكثر المفسرين، فجعلت النار تأكل الحطب، ويصير النحاس مكان الحطب، حتى لزم الحديد النحاس، فإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض استأنف مرة أخرى، إلى أن استوى العمل فصار جبلاً صلداً.

والخطاب في قوله: ﴿انفُخُوا۟﴾، وقوله: ﴿ءَاتُونِيٓ﴾ خطاب للعملة، وحذف متعلق ﴿انفُخُوا۟﴾ لظهوره من كون العمل من صنع الحديد، والتقدير: انفخوا في الكيران المصفوفة على طول ما بين الصدفين وزبر الحديد، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً وامتنع به مَنْ وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج، وفي هذا إشارة لوجوب إتقان العمل التطوعي(٣).

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ص٣٧٧).
(٢) انظر: تفسير ابن عاشور (١٣٥/١٥).
(٣) انظر: تفسير ابن أبي زمنين (٨٢/٣ - ٨٣)، وتفسير البغوي (٢١٧/٣)، وتفسير القرطبي (٦٣/١١)، وتفسير البحر المحيط (٢٠٤/٦ - ٢٠٥)، وتفسير ابن كثير (٤٠٤/٣ - ٤٠٥)، وتفسير أبي السعود (١٧٦/٣ - ١٧٧)، وتفسير الشوكاني (٣١٢/٣ - ٣١٣)، وتفسير السعدي (١٥٣/٣ - ١٥٥)، وتفسير ابن عاشور (٣٤/١٦).

٨. نماذج من تطوع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

اختار الله تعالى لصحبة نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوماً أفذاذاً، فما من آية في كتاب الله تعالى تدعو إلى تطوع وبر وإحسان وخير إلا كانوا أوائل العاملين بها، فمن تلك النماذج ما يلي:

ذكر غير واحد من المفسرين منهم ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم، أن قول الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢١] نزل في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى إن بعض المفسرين حكى الإجماع على ذلك، ولا شك أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منّةٌ يحتاج إلى أن يكافئه بها[١]، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[٢].

وعن مجاهد في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قال: كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبتاع له جارية

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥٥٦/٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الصوم، باب: الريان للصائمين (٢٢٧/٢) رقم (١٨٩٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: الزكاة، باب: مَنْ جَمَعَ الصَّدَقَةَ وَأَعْمَالَ الْبِرِّ (٧١١/١) برقم (١٠٢٧).

يوم فتحت مدائن كسرى في قتال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فدعا بها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأعتقها عمر [1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وروى الضحاك: أن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨] نزل في عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين وقف بئر رومة)[2]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَحْفِرْ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ»، فَحَفَرَهَا عُثْمَانُ [3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ» فَجَهَّزَهُ عُثْمَان [4] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] نزل في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كانت عنده أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً: نزلت في عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بعث بوسق تمر إلى أهل الصُّفَّة ليلاً[5].

ووصف الله تعالى الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بصفات كثيرة، ومن تلك الصفات ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، قال ابن العربي: «قال الخلق بأجمعهم: يريد بذلك الأنصار الذين آووا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين طرد، ونصروه حين خذل، فلا مثل لهم ولا أجرهم»[6].

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٥٧٤/٥).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥٤٥/٤).
(٣) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً، في كتاب: فضائل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: مَنَاقِبُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَبِي عَمْرٍو الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٠٢/٤).
(٤) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً، في كتاب: فضائل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: مَنَاقِبُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَبِي عَمْرٍو الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٠٢/٤).
(٥) انظر: تفسير البحر المحيط (٥٣١/٢).
(٦) آيات الأحكام لابن العربي (١٧٧٥/٤).

وثبت عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم لقول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] تصدّقوا بأحب شيء إليهم، منهم أبو طلحة تصدّق ببئر حاء، وتصدق زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، وأبو ذر بفحل خير إبله(١).

فهؤلاء هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم(٢).

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٨٣١/٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٣/١٨)، وتفسير البحر المحيط (٣٤٥/٨)، وتفسير ابن كثير (٣٦١/٤ - ٣٦٢)، وتفسير السعدي (٢١٠/٥)، وتفسير ابن عاشور (٨٩/٢٨ - ٩٨).

المبحث الخامس
ثمار العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم

للعمل التطوعي ثمار يانعة يجنيها الفرد المسلم في دنياه فضلاً عن أخراه، ولعل أبرز تلك الثمار ما يلي:

١. هداية الله تعالى وإرشاده للمتطوعين:

إن من أراد الهداية وسعى لها سعيها وجاهد فيها، فإن الله لا يحرمه منها، بل يعينه عليها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وذلك ليطمئن كل من يتجه إلى هدى الله، وليعلم أن الله متوليه، وميسر له أسباب الهداية.

وأطلق المجاهدة ولم يقيدها بمتعلق، ليتناول المجاهدة في النفس الأمّارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين، قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في طاعتنا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ سبل ثوابنا(١)، وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال، وما ورد من أقوال العلماء فالمقصود بها المثال.

والهداية: الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي، والإرشاد الشرعي، فقوله تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾: لنزيدنَّهم هداية إلى سبيل الخير، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، وسبل الله: الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه؛ شبهت بالطرق الموصلة إلى منزل الكريم المكرم للضيف.

و(ال) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يحتمل أن تكون للعهد، فالمراد بالمحسنين الذين جاهدوا، وإلى ذلك ذهب الجمهور، ويحتمل أن يكون للجنس، فالمراد بهم مطلق جنس من أتى بالأفعال الحسنة، ويدخل أولئك دخولاً أولياً، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه فَسَّر ﴿لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالموحدين، وفيه تأييد ما للاحتمال الثاني، والله تعالى أعلم(٢).

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٥٦٨/٣)، وتفسير القرطبي (٣٦٤/١٣ - ٣٦٥)، وتفسير الخازن (٣٨٥/٣).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٦٤/١٣ - ٣٦٥)، وتفسير البحر المحيط (٢٠٥/٧ - ٢٠٦)، وتفسير الآلوسي (٢٢/٢١).

٢. التحلي بصفات عباد الله تعالى من المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين:

العمل التطوعي من صفات أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء بهم في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهو كذلك من صفات عباد الله الصالحين، فمن قام بعمل تطوعي فإنه يكون قد اقتفى أثر عباد الله تعالى من المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصالحين من عباد الله تعالى، جعلنا الله تعالى منهم بكرمه وجوده وإحسانه.

٣. إعانة الله تعالى لعبده المتطوع:

إن من فضل الله تعالى وكرمه كونه تعالى معيناً لعبده المتطوع، فالجزاء من جنس العمل، فالمسلم الذي يكون في عون أخيه يكون الله في عونه، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وفي آداب المجالس يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١] ففي هذه الآية يؤدب الله تعالى، ويأمر عباده المؤمنين أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس، ويبين أن الجزاء من جنس العمل فقال تعالى: ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾[١]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[٢].

٤. البشارة من الله تعالى بسعادة الدنيا والآخرة:

يبشر الله تعالى عباده المحسنين، وهم كل من يصدر منه الخير مما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه، وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه إحسان عبادة الله تعالى، والإحسان لعباد الله تعالى بالمال، وبالجاه،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٤٧/٤).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (٢٠٧٤/٣) برقم (٢٦٩٩).

وبالشفاعات، والإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبالكلمة الطيبة، وبتعليم العلم النافع، وبقضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، بأن لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم كما أحسنوا في عبادته ولعباده فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

٥. آثار العمل التطوعي في الصحة النفسية:

العمل التطوعي عمل صالح يثاب عليه العامل ثواباً عظيماً، تظهر آثاره على المسلم في سائر جوانب حياته، ومن تلك الجوانب الناحية الصحية، ولا سيما النفسية منها، فالإسلام جمع بين إصلاح النفوس بالتزكية، وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع، في حين أن معظم الأديان لا تتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفاً إلى المواعظ والعبادات، وقد جاء اقتران المصلحتين في القرآن الكريم في آيات كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. والظاهر من قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أنّ ذلك في الدنيا، وهو قول الجمهور، ويدل عليه قوله بعد ذلك: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ يعني في الآخرة، والحياة الطيبة تشمل جميع وجوه الراحة من أي جهة كانت، كطمأنينة القلب، وسكون النفس، وعدم التفاتها لما يشوش عليها، وبالرزق الحلال الطيب، وغير ذلك من وجوه الراحة النفسية(٢).

والعمل التطوعي سبب من أسباب الحياة الطيبة فهو وسيلة لراحة النفس، والشعور بالاعتزاز والثقة بالنفس عند من يتطوع، ويمكن استخدام العمل التطوعي لمعالجة الأفراد المصابين بالاكتئاب، والضيق النفسي، والملل؛ لأن التطوع في أعمال

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٤٥١/٦)، وتفسير الشوكاني (٤٥٥/٣)، وتفسير السعدي (٢٩٣/٣).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (٦٧٧/٥ - ٦٧٨)، وتفسير ابن كثير (٦٠٧/٤)، وتفسير السعدي (٥٧/٣)، وتفسير ابن عاشور (١٩٤/٣).

خيرية للمجتمع يساعد هؤلاء المرضى في تجاوز محنتهم الشخصية، والتسامي نحو خير يمس محيط الشخص وعلاقاته، ليشعروا بأهميتهم ودورهم في تقدم المجتمع الذي يعيشون فيه، مما يعطيهم الأمل بحياة جديدة أسعد حالاً[1].

والعمل التطوعي وجه من وجوه الراحة النفسية، فهو يشبع بعض الحاجات النفسية بما يناسبها، وذلك لصدِّها عن التوجه لِمَا لا يناسبها، وهذا له تأثير عكسي في التوازن النفسي، ومن أهم تلك الحاجات، إشباع الجانب الديني والروحي، وإشباع الحاجة إلى الإنجاز والنجاح، وإشباع الحاجة إلى الاحترام والتقدير الذاتي، وإشباع الحاجة إلى الانتماء والحب، وإشباع الحاجة إلى المسؤولية، وتوجيه الانفعالات وضبطها، وتفريغ الطاقة، وشَغْل أوقات الفراغ، والرضا والطمأنينة النفسية، وتوجيه العواطف وضَبْطها، وعلاج الأمراض النفسية كعلاج قسوة القلب، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتاه رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتحب أن يلين قلبك؟»، قال: نعم، قال: «فأدن اليتيم إليك، وامسح برأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك، وتقدر على حاجتك»[2].

٦. بالعمل التطوعي يتحقق الترابط والتآلف والتآخي بين المسلمين:

أمر الله تعالى عباده بالتعاون على البر والتقوى، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، والمعنى: ليُعِنْ بعضكم بعضاً على البر، وهذا موافق لما روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل يستحمله، فلم يجد عنده ما يتحمله، فدله على آخر فحمله، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال: «الدال على الخير كفاعله»[3].

---

(١) انظر: مقترحات لتطوير العمل التطوعي، د. بلال عرابي، مجلة النبأ، العدد (٦٣) شعبان (١٤٢٢هـ)، موقع صيد الفوائد.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٩٧/١١) برقم (٢٠٠٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠/١) برقم (٨٠).

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب: العلم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ما جاء الدال على الخير كفاعله (٤١/٥) برقم (٢٦٧٠)، قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٩/٣) برقم (٣٣٩٣).

وبالعمل التطوعي يتجسد مبدأ التكافل الاجتماعي والمواساة والإيثار، والإحساس بالآخرين، فكل خصلة من خصال الخير التي أمر الله تعالى بفعلها، أو خصلة من خصال الشر التي أمر بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره - من إخوانه المؤمنين - عليها، بكل قول وفعل يبعث عليها، وينشط لها، وبالعكس كذلك، وهذا فيه تحقيق للترابط والتآلف والتآخي بين المسلمين، وفي قران الله تعالى بين البر والتقوى في هذه الآية، إعلام بأن من جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته، وعمت نعمته؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس[1].

٧. بالعمل التطوعي يتحقق الإيمان ويقوم المسلم بعدة عبادات:

العمل التطوعي دليل واضح على صدق الإيمان، إذ يقوم المسلم بذلك العمل ولا يرجو ثوابه إلا من عند الله تعالى، وبالعمل التطوعي يقوم المسلم بعدة عبادات عظمى، منها الصبر، ومنها إعانة المحتاجين، ومنها تذكر نعم الله تعالى، ومنها استثمار الوقت في المفيد والنافع، ومنها الشكر لنعم الله تعالى من صحة، وعافية، وحواس سليمة، وبدن معافى، وتعلم علم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢][2].

٨. بالعمل التطوعي يتحقق وعد الله تعالى بنيل الأجر العظيم:

وعد الله تعالى من تطوع مبتغياً به وجه الله وطالباً رضاه، بالأجر العظيم، والعطاء الكثير الجزيل الواسع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، ومباركة ذلك العمل، وتنمية أجره، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] والجزاء المضاعف أضعافاً كثيرة قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/٤٦ - ٤٧)، وتفسير السعدي (١/٤٩٢).
(٢) انظر: تفسير السعدي (١/٢٤٨).

لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وبمغفرة الذنوب وتكفير السيئات ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

٩. نيل محبة الله تعالى:

من ثمرات الأعمال التطوعية نيل العبد لمحبة الله تعالى، وهي غاية وأمل كل مؤمن بالله تعالى، متبع لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحبة الله تعالى للعبد سبب لصلاحه، وفلاحه، وخيريته في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ ففي هذه الآية أمر من الله تعالى بالإنفاق في سبيله في سائر وجوه القُربات، ووجوه الطاعات، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، والمعنى: أحسنوا أعمالكم، وأخلاقكم، وتفضلوا على الفقراء، يحبكم الله تعالى، وهذا فيه إعلام بأن الله يحب من كان الإحسان صفة له، ومن أحبه الله لهذا الوصف فينبغي أن يقوم وصف الإحسان به دائماً، واللام للاستغراق العرفي والمراد المحسنون من المؤمنين(١).

١٠. معية الله تعالى الخاصة للمحسنين:

بين الله تعالى في كتابه الكريم أنه تعالى مع عباده المحسنين، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، والمحسنون هم الذين أحسنوا في عبادة الله، وأحسنوا إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه، والشفقة عليهم، والمعية هنا بالنصر، والتأييد، والإعانة، والتوفيق، والتسديد، والفضل، والرحمة، والولاية، وهذه معية خاصة فالله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم، ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم، ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون.

(١) انظر: تفسير البغوي (٢٣٩/١)، وتفسير البحر المحيط (١١٧/٢، ١٢١)، وتفسير ابن كثير (٢٣٦/١)، وتفسير ابن عاشور (٢١٦/٢).

وتكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى، وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث، كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم، وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية مقدمة على التحلية، وفي هذا إشارة إلى التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله[1].

١١. دخول الجنة:

وعد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أهل الإيمان المتطوعين بأعمال الإحسان، المسارعين فيها، بجنة عرضها السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤][2].

١٢. رؤية وجه الله الكريم في الجنة:

أخبر الله تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان، والعمل الصالح، فأحسن في عبادة الخالق، بأن عبده على وجه المراقبة، والنصيحة في عبوديته، وقام بما قدر عليه منها، وأحسن إلى عباد الله بما يقدر عليه من الإحسان القولي والفعلي، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان، بأن له الجزاء العظيم الذي يفوق كل جزاء، فقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، فهؤلاء الذين أحسنوا لهم: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي الجنة الكاملة في حسنها، ﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦١٤/٢ - ٦١٥)، وتفسير الخازن (١٠٨/٣)، وتفسير البيضاوي (٤٢٨/٣)، وتفسير الآلوسي (٦٦٥/١٤)، وتفسير السعدي (٦٧/٣)، وتفسير ابن عاشور (٣٣٨/١٣).

(٢) انظر: تفسير الآلوسي (٣٧٠/٤، ٣٧٢ - ٣٧٤)، وتفسير ابن عاشور (٨٨/٤، ٩٠ - ٩١).

وهذا هو تفسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزيادة، فعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ! قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ»، وزاد في رواية، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1]، رزقنا الله تعالى لذة النظر إلى وجه الكريم[2].

(١) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٦٣/١) رقم (١٨١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥١٩/٤).

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فإني في نهاية هذا البحث الذي أرجو من الله تعالى أن يتقبله مني، أذكر أهم وأبرز ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات:

أولاً: النتائج:

١. تنوعت أساليب القرآن الكريم في التعبير عن العمل التطوعي، واعتباره إحساناً، وقرضاً حسناً، وصدقة، وبراً، وخيراً، وغير ذلك.

٢. أظهرت الدراسة ما يجب على المتطوع من صفات ينبغي قيامه بها.

٣. للعمل التطوعي في القرآن الكريم مناحٍ عديدة ومظاهر متجددة، ذكر الله تعالى أمثلة كثيرة لها يتقرب بها العبد لربه، ويحسن بها إلى عباد الله تعالى.

٤. كثرت أمثلة المتطوعين في القرآن الكريم؛ ليكونوا أسوة لنا، ونماذج عملية رائدة في العمل التطوعي.

٥. للعمل التطوعي ثمار يانعة يجنيها الفرد المسلم والمجتمع في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

ثانياً: التوصيات:

١. كتابة رسالة علمية في العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم؛ تبرز عظمة القرآن الكريم، وصلاحه لكل زمان ومكان، واهتمامه بحاجات البشر وسده لها.

٢. ضرورة غرس وتعزيز ثقافة العمل التطوعي في المجتمع، عبر المناهج والمقررات الدراسية في المدارس والمعاهد والجامعات، ووسائل الإعلام والمواقع الإلكترونية، والمؤسسات الاجتماعية ليصبح التطوع عادة ومنهجاً تقبل عليه كل فئات المجتمع؛ ولا سيما الأجيال الناشئة باعتباره مظهراً لالتزام الفرد بدينه وقيمه ومسؤولياته تجاه نفسه ومجتمعه.

٣. إنشاء مراكز وكراسيَّ بحثية للدراسات التطوعية، وتنظيم الندوات العلمية، والدورات التدريبية التي تتناول قضايا جديدة في العمل التطوعي، تتوافق مع متطلبات التنمية بوجه عام.

٤. إعداد خطة علمية لإعداد البحوث العلمية في ميادين العمل التطوعي بالتعاون مع الجامعات ومراكز البحث العلمي.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب العلمية:

١. **أحكام القرآن**: لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبعة دار المعرفة، بيروت، بدون رقم طبعة، بدون تاريخ طبع.

٢. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المعروف بتفسير أبي السعود**: لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، طبعة دار الفكر، بيروت، بدون رقم طبعة، بدون تاريخ طبع.

٣. **أسباب النزول**: لأبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، تحقيق: السيد أحمد صقر، طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية، السعودية، مؤسسة علوم القرآن، سوريا، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ).

٤. **الأشباه والنظائر**: لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، بدون رقم طبعة (١٤٠٣هـ).

٥. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، طبعة عالم الكتب، بيروت، بدون رقم طبعة (١٣٨٤هـ).

٦. **إعراب القراءات الشواذ**: لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: محمد السيد أحمد عزوز، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ).

٧. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي**: لأبي سعيد عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفان العشا حسونة، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ).

٨. **البحر المحيط**: لمحمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق د. عبد الرزاق المهدي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ).

٩. **البحر المحيط في أصول الفقه**: لمحمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق د. محمد محمد تامر، طبعة دار الكتب العلمية، لبنان (١٤٢١هـ).

١٠. **البداية والنهاية**: لإسماعيل بن كثير القرشي، طبعة الكتب العلمية، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ).

١١. **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**: لمحمد الطاهر بن عاشور، طبعة مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ).

١٢. **التطوع في الدفاع المدني والحماية المدنية**: لمساعد بن منشط اللحياني، بدون مطبعة، بدون بلد طبع، الطبعة الأولى (١٩٩٤م).

١٣. **تفسير القرآن العزيز، المعروف بتفسير ابن أبي زمنين**: لابن أبي زمنين محمد بن عبدالله، تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد مصطفى الكنز، مطبعة الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ).

١٤. **تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير**: لإسماعيل بن كثير القرشي، طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ).

١٥. **تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير السمعاني**: لمنصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم بن عباس غنيم، طبعة دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).

١٦. **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين المعروف بتفسير ابن أبي حاتم**: لعبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد بن محمد الطيب، طبعة مكتبة نزار الباز، السعودية، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ).

١٧. **تفسير عبد الرزاق**: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د: محمود محمد عبده، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).

١٨. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوى ومحمد عبد الكبير البكرى، طبعة مؤسسة قرطبة، بدون بلد طبع، بدون رقم طبعة، بدون تاريخ طبع.

١٩. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: محمد زهري النجار، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ).

٢٠. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المعروف بتفسير الطبري**: للإمام محمد بن جرير الطبري، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، طبعة دار هجر، الجيزة، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).

٢١. **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله** ﷺ **وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري**: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، أشرف عليه ورقمه وأعد فهارسه د. بدر الدين جتين أر، طبعة دار سحنون، تونس، بدون رقم طبعة (١٤١٣هـ).

٢٢. **الجامع لأحكام القرآن**: لمحمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، طبعة دار الكتاب العربي، بدون بلد طبع، الطبعة الخامسة (١٤٢٣هـ).

٢٣. **الجامع لشعب الإيمان**: لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، ومختار أحمد الندوي، طبعة مكتبة الرشد، الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي الهند، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ).

٢٤. **حجة القراءات**: لعبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، تحقيق: سعيد الأفغاني، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

٢٥. **الخدمات التطوعية في الكتاب والسنة؛ مفهومها، وأهميتها، ومجالاتها**: للدكتور محمد سعيد بن محمد حسن بخاري، طبعة دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ).

٢٦. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ).

٢٧. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: لمحمود أفندي الآلوسي البغدادي، تحقيق: محمد أحمد الأمد ومحمد عبد السلام السلامي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ).

٢٨. **روضة الناظر وجنة المناظر**: لابن قدامة المقدسي أبو محمد عبد الله بن أحمد، تحقيق د. عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ).

٢٩. **زاد المسير في علم التفسير**: لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي البغدادي، طبعة المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ).

٣٠. **زاد المعاد في هدي خير العباد**: لأبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثالثة عشر، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٠٦هـ).

٣١. **سنن ابن ماجه**: لمحمد بن يزيد بن ماجه القزويني، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار سحنون، بدون رقم طبعة، تونس (١٤١٣هـ).

٣٢. **سنن أبي داود**: لسليمان بن الأشعث السجستاني، أشرف عليه ورقمه وأعد فهارسه د. بدر الدين جتين أر، طبعة دار سحنون، بدون رقم طبعة، تونس (١٤١٣هـ).

٣٣. **سنن الترمذي**: لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، أشرف عليه ورقمه وأعد فهارسه د. بدر الدين جتين أر، طبعة دار سحنون، بدون رقم طبعة، تونس (١٤١٣هـ).

٣٤. **السنن الكبرى**: لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، وفي ذيله الجوهر النقي: لعلاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، نشر مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الطبعة الأولى (١٣٤٤هـ).

٣٥. **سنن النسائي**: لأحمد بن شعيب النسائي، أشرف عليه ورقمه د. بدر الدين جتين أر، طبعة دار سحنون، بدون رقم طبعة، تونس (١٤١٣هـ).

٣٦. **سيرة النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة دار الفكر، بدون رقم طبعة، بيروت (١٤٠١هـ).

٣٧. **شرح شافية ابن الحاجب**: لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرين، طبعة دار الكتب العلمية، بدون رقم طبعة، بيروت (١٣٩٥هـ).

٣٨. **صحيح الجامع الصغير وزياداته**: لمحمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت (١٣٨٨هـ).

٣٩. **صحيح مسلم**: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار سحنون، بدون رقم طبعة، تونس (١٤١٣هـ).

٤٠. **صحيح مسلم بشرح النووي**: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، طبعة دار الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة (١٤١٥هـ).

٤١. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة (١٤٠٧هـ).

٤٢. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير المعروف بتفسير الشوكاني**: محمد بن علي الشوكاني، طبعة دار الفكر، بدون رقم طبعة، بيروت (١٤٠٣هـ).

٤٣. **الفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق**: لأبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، تحقيق: خليل المنصور، طبعة دار الكتب العلمية، بدون رقم طبعة، بيروت (١٤١٨هـ).

٤٤. **الفروق اللغوية**: لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، طبعة دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، بدون رقم طبعة، القاهرة، مصر، بدون تاريخ طبع.

٤٥. **كتاب السبعة في القراءات**: لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق: د. شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة (١٤٠٠هـ).

٤٦. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: لجار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، طبعة مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض (١٤١٨هـ).

٤٧. **لباب التأويل في معاني التنزيل، المعروف بتفسير الخازن**: لعلي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت (١٤٢٥هـ).

٤٨. **لسان العرب**: لابن منظور محمد بن مكرم، طبعة دار صادر، بدون رقم طبعة، بيروت، بدون تاريخ طبع.

٤٩. **المجموع شرح المهذب**: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، بدون مطبعة، بدون رقم طبعة، بدون بلد طبع، بدون تاريخ طبع.

٥٠. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: لابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق: السيد عبد العال السيد إبراهيم، طبعة مؤسسة دار العلوم، الطبعة الأولى، الدوحة (١٤١١هـ).

٥١. **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**: لابن بدران عبد القادر بن أحمد بن مصطفى ابن عبد الرحيم، تحقيق: محمد أمين ضناوي، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت (١٤١٧هـ).

٥٢. **المسند**: لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، طبعة دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، دمشق، بيروت (١٤٠٤هـ).

٥٣. **المسند**: للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: مجموعة من الأساتذة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت (١٤١٩هـ).

٥٤. **المصنف**: لابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد العبسي الكوفي، تحقيق: محمد عوامة، بدون مطبعة، بدون رقم طبعة، بدون بلد طبع، بدون تاريخ طبع.

٥٥. **المصنف**: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت (١٤٠٣هـ).

٥٦. **معالم التنزيل المعروف، بتفسير البغوي**: للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، طبعة دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت (١٤٢٣هـ).

٥٧. **معاني القرآن**: لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، طبعة مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثالثة، القاهرة (١٤٢٢هـ).

٥٨. **المعجم الاشتقاقي في المؤصل لألفاظ القرآن الكريم مؤصل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها**: للأستاذ الدكتور محمد حسن حسن جبل، طبعة مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، القاهرة (٢٠١٠م).

٥٩. **المعجم الأوسط**: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله ابن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، طبعة دار الحرمين، بدون رقم طبعة، القاهرة (١٤١٥هـ).

٦٠. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: لمحمد فؤاد عبد الباقي، بدون مطبعة، بدون رقم طبعة، بدون بلد طبع، بدون تاريخ طبع.

٦١. **معجم مقاييس اللغة**: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت (١٤١١هـ).

٦٢. **معرفة الصحابة**: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، طبعة دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض (١٤١٩هـ).

٦٣. **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**: لابن قدامة المقدسي أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن محمد، بدون مطبعة، بدون رقم طبعة، بدون بلد طبع، بدون تاريخ طبع.

٦٤. **مفاتيح الغيب، المعروف بتفسير الرازي**: لمحمد بن عمر التميمي الشافعي الرازي، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت (١٤٢١هـ).

٦٥. **منهاج الطالبين وعمدة المفتين**: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، بدون مطبعة، بدون رقم طبعة، بدون بلد طبع، بدون تاريخ طبع.

٦٦. **موسوعة أطراف الحديث النبوي**: لمحمد السعيد بن بسيوني، طبعة عالم التراث، الطبعة الأولى، بيروت (١٤١٠هـ).

٦٧. **الموسوعة الفقهية الكويتية**: صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، طبعة مطابع دار الصفوة، الطبعة الأولى، مصر، بدون سنة طبع.

٦٨. **الموطأ**: للإمام مالك بن أنس، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار سحنون، بدون رقم طبعة، تونس (١٤١٣هـ).

٦٩. **النشر في القراءات العشر**: لابن الجزري محمد بن محمد الدمشقي، أشرف على تصحيحه: علي محمد الضباع، طبعة دار الكتب العلمية، بدون رقم طبعة، بيروت، بدون سنة طبع.

ثالثاً: الرسائل العلمية:

- **العمل التطوعي في السنة النبوية، دراسة موضوعية**: رسالة ماجستير، من إعداد الباحثة: رندة محمد زينو، قسم الحديث الشريف وعلومه، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

رابعاً: المواقع الإلكترونية:

- صيد الفوائد.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٢٤٩
المقدمة	٢٥٠
أسباب اختيار الموضوع	٢٥١
أهداف البحث	٢٥١
الدراسات السابقة	٢٥١
الفرق بين هذه الدراسة والدراسات السابقة	٢٥٢
خطة البحث	٢٥٢
منهج البحث	٢٥٣
تمهيد: مفهوم العمل التطوعي	٢٥٤
العمل في اللغة	٢٥٤
التطوع في اللغة	٢٥٤
العمل التطوعي اصطلاحاً	٢٥٥
المبحث الأول: أسلوب القرآن الكريم في الحث على العمل التطوعي	٢٥٧
١. اعتبار العمل التطوعي إحساناً	٢٥٧
٢. اعتبار العمل التطوعي قرضاً حسناً	٢٥٨
٣. اعتبار العمل التطوعي صدقة	٢٥٩
٤. اعتبار العمل التطوعي براً	٢٦٠
٥. اعتبار العمل التطوعي خيراً	٢٦٣
٦. إعطاء الغارم في إصلاح ذات البين من الزكاة	٢٦٥
٧. التحذير من التثبيط عن فعل التطوع	٢٦٧

الموضوع	الصفحة
٨. التحذير من الاتصاف بصفات المكذبين بيوم الدين	٢٦٩
المبحث الثاني: صفات العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم	٢٧٢
أولاً: إخلاص العامل في عمله	٢٧٢
ثانياً: اتباع النبي ﷺ في التطوع بالخير	٢٧٣
ثالثاً: إتقان العمل	٢٧٣
رابعاً: معرفة حكم العمل التطوعي	٢٧٤
خامساً وسادساً: القوة والأمانة	٢٧٤
سابعاً وثامناً: الحفظ والعلم	٢٧٥
تاسعاً: الاتصاف بالصلاح في التعامل	٢٧٦
المبحث الثالث: أمثلة على العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم	٢٧٧
الأول: عمارة المساجد	٢٧٧
الثاني: إطعام الطعام	٢٨٠
الثالث والرابع والخامس: الأمر بالصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس	٢٨٢
السادس: الإنفاق في وجوه البر والإحسان	٢٨٦
السابع: الشفاعة للآخرين في أمور الخير	٢٨٩
الثامن: العفو عن من قتل خطأً	٢٩٠
التاسع والعاشر: إنظار المعسر، والوضع عنه	٢٩١
الحادي عشر: كتابة الحقوق والديون	٢٩٤
الثاني عشر: تحمل الشهادة وأداؤها	٢٩٥
المبحث الرابع: نماذج من المتطوعين من خلال القرآن الكريم	٢٩٧
١. ذكر شيء من الأعمال التي تطوع بها النبي محمد ﷺ	٢٩٧
أ. شراء النبي ﷺ لأرض المسجد النبوي ووقفه لها	٢٩٨

الموضوع	الصفحة
ب. تعاون النبي ﷺ في بناء المسجد	٢٩٨
ج. مشاركته ﷺ في حفر الخندق	٢٩٩
د. سعي النبي ﷺ للإصلاح بين الناس	٣٠٠
أمثلة من مواقفه ﷺ في الإصلاح بين الناس	٣٠٠
هـ. نصرته ﷺ للمظلوم	٣٠١
٢. إكرام إبراهيم عليه السلام للضيف	٣٠٢
٣. تطوع يوسف عليه السلام بأعمال جليلة لأهل السجن	٣٠٣
٤. موسى عليه السلام يتطوع بالسقي لامرأتين	٣٠٣
٥. بناء الخضر عليه السلام الجدار تطوعاً	٣٠٥
٦. مسارعة الأنبياء عليهم السلام في الخيرات	٣٠٦
٧. تطوع ذي القرنين ببناء الردم	٣٠٧
٨. نماذج من تطوع الصحابة رضي الله عنهم	٣١١
المبحث الخامس: ثمار العمل التطوعي من خلال القرآن الكريم	٣١٤
١. هداية الله تعالى وإرشاده للمتطوعين	٣١٤
٢. التحلي بصفات عباد الله تعالى من المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين	٣١٥
٣. إعانة الله تعالى لعبده المتطوع	٣١٥
٤. البشارة من الله تعالى بسعادة الدنيا والآخرة	٣١٥
٥. آثار العمل التطوعي في الصحة النفسية	٣١٦
٦. بالعمل التطوعي يتحقق الترابط والتآلف والتآخي بين المسلمين	٣١٧
٧. بالعمل التطوعي يتحقق الإيمان ويقوم المسلم بعدة عبادات	٣١٨
٨. بالعمل التطوعي يتحقق وعد الله تعالى بنيل الأجر العظيم	٣١٨
٩. نيل محبة الله تعالى	٣١٩

الموضوع	الصفحة
١٠. معية الله تعالى الخاصة للمحسنين	٣١٩
١١. دخول الجنة	٣٢٠
١٢. رؤية وجه الله الكريم في الجنة	٣٢٠
الخاتمة	٣٢٢
فهرس المصادر والمراجع	٣٢٤
فهرس الموضوعات	٣٣٢